الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنوان:

الاتجاهات اللسانية في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي

مذكرة مقدَّمة لاستكمال متطلبات شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: لسانيات عربية

إعداد الطالبة:

نادية كلال

إشراف الأستاذ(ة):

د. عائشة برارات

الأستاذ	الجامعة	الصفة
د. عائشة برارات	غرداية	مشرفا و مقررا
أد. طاهر براهيمي	غرداية	رئيسا
د. مصطفى حجاج	غرداية	مناقشا

السنة الجامعية

1443هـ- 1444هـ/2021م- 2022م

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

إهداء

أهدي ثمرة جهدي وعملي هذا إلى من قال الحق تبارك وتعالى فيهما:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

أمي الحبيبة حفظها الله ورزقني برها

وأبي الفاضل وسندي في الوجود بارك الله لنا في عمره

إلى والدة زوجي وأمي الثانية خير معينة وأحب مشجعة

إلى زوجي الفاضل حماه الله وحفظه بحفظه

إلى المؤنسة الغالية ابنتي وزهرة قلبي "ميساء"

إلى إخوتي وعزوتي في الحياة

إلى زهرات العمر أخواتي الحبيبات

إلى كل عائلة زوجي الطيبة

بارك الله لي فيكم ولا حرمني منكم.

نادية كلال

شكر وعرفان

اللهم لك الحمد حمدا مباركا فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، أشكرك ربي على نعمك التي لا تعد، وآلائك التي لا تحد، أحمدك ربي وأشكرك على أن يسرت لي إتمام هذا البحث على الوجه الذي أرجو أن ترضى به عني.

ثم أتوجه بالشكر إلى من رعتني طالبة إلى أستاذتي ومشرفتي الفاضلة الدكتورة

"عائشة برارات"

التي لها الفضل بعد الله عز وجل في إعداد هذا البحث مذ كان الموضوع عنوانا وفكرة إلى أن صار رسالة وبحثا فلها مني الشكر كله والتقدير والعرفان وأقول لها بشراك قول الرسول صل الله عليه وسلم "إن الحوت في البحر، والطير في السماء، ليصلون على معلم الناس الخير".

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من مد لي يد العون من قريب أو بعيد.

نادية كلال

ملخص:

يُعد تراثنا اللغوي العربي مشكاة للدراسات اللغوية الحديثة، حيث عمد الدارسون المحدثون على استقرائه وكشف كنهه وقطف دره، وذلك كون الفكر العربي آنذاك بلغ أعلى مستوياته خاصة فيم تعلق باللغة تحليلا وتنظيرا فما انفك صيته يقرع إلى غاية الدرس اللساني الحديث.

وهذا جوهر وموضوع دراستنا والتي تحمل عنوان: "الاتجاهات اللسانية في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي"، فقد عمدنا إلى توظيف ثلاثة اتجاهات لسانية بارزة على المدونة التي تعتبر من أجلّ ما صُنف في علم البلاغة في التراث بالتحليل والمقارنة والاستنتاج.

ومن أجل ذلك قسمنا موضوعنا إلى ثلاثة مباحث كل مبحث خصصناه لاتجاه لساني بعينه وختمنا الدراسة بأهم ما توصلنا إليه.

Summary:

The history of Arabic Linguistics is considered as the source of Modern Linguistic studies whose scholars aim to examine in order to understand it and disclose its obscurities. At that time, the studies of Arabic language reached its highest levels, especially with regard to language analysis and theorizing, which continues to influence the studies of Arabic Linguistics until today. In this research, under the title *Linguistic Trends in Ibn Sinan Al-Khafaji's Book The Secret of Eloquence*, we aim to use three prominent Linguistic trends on Sinan Al-Khafaji's Book which is regarded as a seminal work in the Rhetorical Studies of heritage, using the tools of analysis, comparison and deduction.

This research is divided into three chapters, and each chapter focuses on studying one specific Linguistic trend. The main findings of this research are shared as a conclusion.

مقدمـــــــة

اهتم العرب بلغتهم اهتماما كبيرا منذ القدم، فقد كانت القبائل العربية تقيم الولائم عندما ينبغ فيهم شاعر، وهذا لتقديسهم لهذه اللغة وفخرهم بها، وبعد نزول القرآن بلسان عربي مبين تسابق الكل لتعلم العربية وإتقانها بغية فهم القرآن وحسن تلاوته، فكانت جهود الشعراء واللغويين والنحاة وغيرهم خدمة للغة العربية، وتصحيح التحريف والتصحيف الذي انتشر آنذاك خاصة مع دخول الأعاجم في الإسلام.

وبعد أن تهيّأت الظروف للبحث والتأليف لم يكتف العلماء العرب بالسليقة وبالملاحظة وإنّما همّوا بتدوين علومهم لتمكين الناس من هذا العلم الجليل القدر، فكانت مرحلة ضبط قواعد اللغة وتفريع العلوم اللغوية عن بعضها ووضع مصطلحات لكل علم.

إنّ تعريف العلماء العرب القدامى للغة لا يقلّ شأنا عن تعريف علماء الغرب لها، وبناء على هذا سنحاول من خلال بحثنا هذا عرض أهمّ المنطلقات اللسانية في تراثنا اللغوي العربي، وقد وقع اختيارنا على مدونة **"سرّ الفصاحة"** لابن سنان الخفاجي، ويُعدّ من أفضل آثار "ابن سنان الخفاجي"، فهو بحق مدرسة نقدية لم يكتب لها الذيوع ولا الانتشار كما انتشرت مدرسة أبي القاهر الجرجاني من خلال كتابه "**دلائل الإعجاز**"، وقد سميت هذه المرحلة مرحلة الفصاحة والبلاغة.

إن المتتبع لتاريخ تراثنا اللغوي يجد أن الكثير من الأفكار والقضايا التي عالجتها النظريات والمدارس اللسانية الحديثة قد تعرض لها الدارسون اللغويون العرب، وإن اختلفت المصطلحات لكن المفهوم واحد، وهذا ما تجلى في كتابنا "سرّ الفصاحة"، حاولنا من خلال دراستنا هذه استنتاج العديد من أفكار بعض المدارس اللسانية الحديثة التي تجلت في تراثنا اللغوي العربي من خلال كتاب "سرّ الفصاحة"، وهي: البنيوية، ثم التوليدية التحويلية، وتليها التداولية.

ومنه فالإشكالية المطروحة:

إلى أيّ مدى يمكننا القول إن كتاب سر الفصاحة قد حوى المباحث اللسانية الحديثة؟ وأين تجلت هذه المباحث؟

وتتفرع عن الإشكالية الكبرى عدّة مشكلات هي:

- كيف تجلت مفاهيم البنيوية عند ابن سنان؟
- كيف يمكن استثمار فكر ابن سنان الخفاجي للكشف عن القواعد التوليدية التحويلية التي تضمنها سرّ الفصاحة؟
- هل تضمّن كتاب سرّ الفصاحة أبحاثا تداوليّة تقابل ما جاءت به الدراسات الغربية الحديثة؟ وما هي أهمّ نقاط التقاطع والتقارب بينهما؟

ومن بين أهمّ الدوافع لاختيارنا هذا الموضوع مجموعة من الدوافع الذاتية وأخرى موضوعية نذكر منها:

- الميل الشخصي لكل ما يتعلق بالتراث.
- الإسهام في خدمة تراثنا العربي بدراسته وإخراج مكنوناته.
- محاولة إثبات أن ما هو متداول في اللسانيات الحديثة له جذور متأصلة في تراثنا اللغوي العربي.
- محاولة إيجاد نقاط التقاطع بين الفكر العربي والفكر الغربي في مجال اللغة.

وتكمن أهمية بحثنا في مكانة مدونته التي لم تحظ بدراسات شافية كافية في مجال اللسانيات، وكذا ربط النظرية اللسانية العربية بالنظرية اللسانية الغربية الحديثة واكتشاف الأسس التي قامت عليها تلك النظريات.

ومن بين أهمّ المرامي التي سعينا لبلوغها من خلال دراستنا هذه نذكر:

- إتحاف المكتبة الجامعية بدراسة لسانية حديثة لسفْر عظيم من تراثنا العربي، والمتمثل في مدونتنا سرّ الفصاحة.
- محاولة ربط اللسانيات الحديثة بما جاء في تراثنا العربي.
- الكشف عن جذور الدراسات اللسانية التي انبنت عليها هذه الاتجاهات.
- تسليط الضوء على مدونة لم تحظ بدراسات كافية شافية رغم غزارة المادة العلمية في كتاب سرّ الفصاحة.

ولإخراج بحثنا في حلّة قشيبة تليق بمكانة المدونة وصاحبها اعتمدنا الخطة الآتية:

تمهيد: الوصف الخارجي والداخلي للكتاب.

المبحث الأول: بعنوان" الاتجاه البنيوي في كتاب سرّ الفصاحة" وشمل أربعة مطالب هي:

المطلب الأول فكان بعنوان اللغة والكلام ثم المطلب الثاني والذي حمل عنوان الأصوات والحروف يليه المطلب الثالث بعنوان الدال والمدلول، وأخيرا المطلب الرابع الاستبدالية والتركيبية.

ثم المبحث الثاني تحت عنوان "الاتجاه التوليدي التحويلي في كتاب سرّ الفصاحة" وشمل مطالبين هما: المطلب الأول بعنوان الاستعارة ويليه المطلب الثاني تحت عنوان القواعد التوليدية التحويلية.

أما المبحث الثالث والأخير فيحمل عنوان" التداولية في كتاب س الفصاحة" وشمل أربعة مطالب هي: المطلب الأول الإشاريات، ثم المطلب الثاني بعنوان الأفعال الكلامية، يليه المطلب الثالث الاستلزام الحواري، وأخيرا المطلب الرابع الحجاج.

خاتمة وفيها صفوة القول والنتائج التي توصلنا إليها.

وفي خلال دراستنا اعتمدنا ثلاثة مناهج يقتضيها موضوع البحث وهي: المنهج البنيوي المنهج التوليدي التحويلي، ثم المنهج التداولي إضافة إلى بعض الأدوات الإجرائية كالمنهج الوصفي /المنهج المقارن/ المنهج التاريخي أحيانا.

ومن الدراسات السابقة التي تناولت كتاب "سرّ الفصاحة" نجد:

مقال بعنوان :

التفكير المساني في كتاب سر الفصاحة

لابن سنان الخفاجي / قراءة وتوجيه

د. معن توفيق دحام

مجمة التربية والعلم – المؤتمر العلمي الدولي السادس لقسم المغة العربية 2012

-ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية والنقدية من خلال كتابه "سرّ الفصاحة" رسالة دكتوراه قدمتها الطالبة درية ياسين عبد الرحمن أحمد بإشراف الدكتور محمد الحسن علي الأمين 1430هـ -2009م.

- الكناية عند ابن سنان الخفاجي (قراءة في ضوء المنهج التداولي) لطالبة الدكتوراه زينب بن قيراط – الدكتور عبد السلام شقروش- جامعة باجي مختار –عنابة- 15 سبتمبر 2021م.

وما يميّز دراستنا أنّها الدراسة الوحيدة على حد علمنا التي جمعت ثلاثة اتجاهات لسانية حديثة وطبقتها على أحد كتب التراث العربي وهذا يُعد سبقا في الدراسات الأكاديمية.

ومن الصعوبات التي واجهتنا خلال إنجاز البحث نذكر:

- غزارة المادة العلمية في كتاب سرّ الفصاحة مما أشكل علينا الإلمام بها كلّها في ظل هذا البحث الذي نحن مقيدون بعدد صفحاته.
- صعوبة تطبيق المناهج اللسانية الحديثة على المدونة في ظل اختلاف المصطلحات.
- فترة الحمل والولادة مما اضطرنا لتأجيل المذكر إلى الدورة الثانية.

و من بين أهم المصادر والمراجع التي كانت عونا لنا لإيجاد ضالتنا نذكر منها:

- المدونة "سرّ الفصاحة" بطبعتين مختلفتين.
- عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي.
- طيب دبة، مبادئ اللسانيات البنيوية.
- بوحوش رابح، اللسانيات وتحليل النصوص.
- نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة.

وفي الأخير فما كان من توفيق فمِن الله وحده، وما كان من خطأ، أو سهو، أو نسيان فمنّا ومن الشيطان، والحمد لله رب العالمين.

نادية كلال

2022/07/25م

زلفانة – غرداية –

تمهيد

أولا : ترجمة المؤلف وآثاره العلمية:

أولا: اسمه:

هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجي الحلبي.[1]

ثانيا: نسبه:

هو من بني خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب، وكان أبوه من أشرافها وخفاجة من سلالة بني حزن الخفاجيين أولاد خفاجة بن عمرو بن عقيل فخفاجة من عقيل وهي عربية تنتمي إلى عدنان[2].

ثالثا: مولده:

ولد ابن سنان الخفاجي سنة 423هـ الموافق لـ 1032 م بحلب من أسرة شيعية.[3]

رابعا: ذكاؤه وفطنته:

كان أميرا على بعض ولايات حلب لدى السلطان محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب، فعصى السلطان واعتصم بقلعة عزار من أعمال حلب، وكان بينه وبين الوزير أبي نصر ابن النحاس مودة صادقة فأمره السلطان أن يكتب إلى الخفاجي كتابا يستعطفه ويؤنسه، وقال له إنه لا يأمن إلا إليك ولا يثق إلا بك فكتب إليه كتابا فلما فرغ منه وكتب (إنّ شاء الله) شدّد النون من إنّ فلما قرأه الخفاجي خرج من عزار قاصدا حلب، وبينما هو في الطريق أعاد النظر في الكتاب ورأى التشديد على النون فأمسك رأس فرسه وفكر طويلا، وقال إنّ ابن النحاس لم يكتب هذا عبثا ثم لاح له أنّه أراد قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ [القصص : 20]

---

[1]/ خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، ط15، مايو2002، ج4، ص: 122.

[2] / ينظر: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت، ص: 469.

[3] / خير الدين الزركلي، نفسه، ج4، ص: 122.

فعاد إلى عزار وكتب الجواب (إنّا الخادم المعترف بأنعام) وكسر الألف وشدّد النون وفتحها فلما وقف أبو نصر على ذلك سُرّ وعلم أنّه قصد به قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: 24][1].

وكتب إليه جوابا يستصوب رأيه فكتب إليه الخفاجي: [2]

خف من أمنت ولا تركن إلى أحد	❁	**فما نصحتك إلا بعد تجريب**
إن كانت الترك فيهم غير وافية	❁	**فما تزيد على غدر الأعاريب**
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم	❁	**وكاد أن يدرسوها في المحاريب**

رابعا: مؤلفاته

له في البلاغة كتاب "سرّ الفصاحة" وهومن أحسن ما ألف فيها وفيه يقول صاحب المثل السائر: «وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وزينه، وعلمت غثّه وسمينه، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب سرّ الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي »وقد نقده في جملة مواضع منه.

كما له ديوان شعر متوسط الحجم وهو مطبوع أيضا[3].

خامسا: وفاته

توفي ابن سنان مسموما سنة ست وستين وأربعمائة، دُسّ له ابن النحاس السُّم في الطعام بعد أن توعده السلطان إن لم يقتله قتله فقدم إليه خشكنانة مسمومة فأكلها فقضى نحبه.[4]

---

[1] / أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ط1، 1369هـ – 1950م، ص: 99.

[2] / نفسه، ص: 100.

[3] / نفسه، ص: 98.

[4] / نفسه، ص: 100.

ثانيا: الدراسة الخارجية للكتاب:

- الاسم الكامل للمؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي
- عنوان الكتاب: سرّ الفصاحة.
- المحقق: داود غطاشة الشوابكة.
- عدد الصفحات: 330.
- دار ومكان النشر: دار الفكر، عمان 2006.
- الطول:24،5سم/العرض: 17،5سم /السمك: 2سم/ الحجم: متوسط
- الفصول: 8 فصول
- المصادر والمراجع: اعتمد "ابن سنان الخفاجي " في كتابه سرّ الفصاحة على مصادر عديدة منها القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والدواوين الشعرية، وبعض الشروح، ومجالسته العلماء ومما اكتسبه بنفسه، وكتب من قبله.

ثالثا: الدراسة الداخلية للكتاب:

- **ملخص عام حول مضمون الكتاب:**

إنّ كتاب سرّ الفصاحة من أبرز أعمال ابن سنان الخفاجي ومحتواه هو ما جعله من أهم كتب البلاغة حيث بين فيه أسرار الفصاحة وفنونها وشروطها في اللفظة الواحدة.

و قد بدأ ابن سنان الخفاجي كتابه بفصل سماه "فصل في الأصوات"، عرف في هذا الفصل الصوت وذكر فيه كيف يمكن الدلالة على أن الصوت ليس بجسم، وذلك بإثبات أن الأجسام متماثلة من وجه آخر، وذلك أن ندرك الأصوات المختلفة، وتكلم عن كيفية خروج الصوت مستطيلا ساذجا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا [1].

وبعده جاء بفصل سماه: "فصل في الحروف" «ففيه عرّف الحرف، وبيّن كيف أن الحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت، وذكر أن للحروف أيضا انقسامات، وعدد تلك الانقسامات وذكر أن هذه الانقسامات سببا في إكثار علاقة الحرف بالنحو، وبعد فصل في الحروف جاء بـ "

[1] / ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تح: داود غطاسة شوابكة، دار الفكر، ط1، عمان ،2006م/ 1427هـ ص19.

فصل في الكلام" حيث ذكر فيه شروط الكلام ومن بينها الانتظام في الحروف، وبعدها شرح صفات الكلام وحدوده.

ثم تحدث في فصل يليه عن اللغة ، فعرفها وبين بأن اللغات مواضعة بين بني البشر وليست بتوقيف ، وقدم اللغة على جميع اللغات وفضلها عنهم ، وبعدها جاء بكلام في الفصاحة ، فعرفها وذكر الفرق بينها وبين البلاغة ، وذكر شروطها وتقسيماتها ، ويليه تكلم عن الفصاحة في الألفاظ المؤلفة ، وفي الحقيقة والمجاز ، والاستعارة ، والكناية ، والسجع ، والترصيع ، ولغة الأدب وتناسب الألفاظ ، والجناس ، والطباق ، والمقابلة ... وعقِب ذلك طفقَ في "الكلام في المعاني مفردة" وبعدها خصص فصلا في ذكر الأقوال في نقد الكلام فتكلم في هذا الفصل عن تفضيل الرواة وأهل اللغة أشعار المتقدمين على شعر كافة المحدثين ، بعد هذا الفصل جاء بفصل سماه "فصل في ذكر الفرق بين المنظوم والمنثور وما يقال في تفضيل أحدهما على الآخر" ، فحدّ النثر عنده هو حد الكلام وأما حد الشعر فهو كلام موزون مقفى يدل على معنى معين.

- **منهج الكتاب:**

لقد جاء منهج "ابن سنان" في كتابه سرّ الفصاحة خاصا ، فقد كان أسلوبه واضحًا للقارئ لا إطناب فيه و لا الإيجاز ، وتجلى ذلك في قوله :" قربت ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل ، ولم أمِلْ بالاختصار إلى الإخلال ، ولا مع الإسهاب إلى الإملال"[1]، وكان منهجه سهلا في الفهم ومواضيعه متسلسلة ، واتسمت بالترتيب المنهجي ، فقد كان قوله في ذلك:" ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذاً من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها ثم نذكر تقطّعها على وجه يكون حروفا متميزة ، ونشير إلى طرف من أحاول الحروف في مخارجها ثم نبدل على أن الكلام ما انتظم منها ، ثم نُتبع ذلك بحال اللغة العربية وما فيها من حروف..."[2] فهذا الترتيب المنهجي وضح لنا التفكير اللساني عند "ابن سنان في كتابه هذا .

وكذلك اعتمد "ابن سنان" في منهجه عن الأمثلة النثرية، وكذلك الشعرية، ولكن أكثرها كان أمثلة شعرية.

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 11.

[2]/ نفسه، ص: 12.

- **موقف العلماء من كتاب سر الفصاحة :**

يوجد العديد من الآراء التي أبديت في كتاب سرّ الفصاحة نذكر من بينها : رأي ابن الأثير يقول: "وبعد فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبا وجلبوا ذهباً وحطباً ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثّه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب (الموازنة) لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب (سرّ الفصاحة) لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي ، غير أن كتاب (الموازنة) أجمع أصولاً وأجدى محصولاً ، وكتاب (سرّ الفصاحة) وإن نبت فيه على نكتة منيرة ، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها"[1].

وعلى الرغم من أن ابن الأثير قد انتقد كتاب سرّ الفصاحة في كثير من المواضع، إلا أنّه لا ينكر فضله وانتفاعه به في كثير من المواضع.

نجد كذلك رأي محمد العمري يقول في موقفه من كتاب سرّ الفصاحة: "كونه يمثل أحسن بل أجرأ محاولة لصياغة مشروع للبلاغة الصوتية انطلاقا من رصيد معرفي وخلفية مذهبية تُرِيدُ أن تؤّل وتُوجَّه، مثل أي دعوة أيديولوجية، قضايا الأدب لتتلاءم مع مبادئها ومنطلقاتها..."[2] ، وحسب رأي العمري فإن عمل الخفاجي في سرّ الفصاحة يحمل في طياته أهمّ محاولة في البلاغة الصوتية، وفي الفصاحة كذلك، فعن طريق هذا الكتاب شهدت البلاغة والفصاحة أهمّ مرحلة بزغتا فيها بشكل لم تظهر فيه من قبل على ذلك النحو.

أما بدوي طبانة فيرى أنّ كتاب سرّ الفصاحة من أهمّ الكتب التي تطرقت إلى المسائل البلاغية وأسرار الفصاحة وكان وصف بدوي طبانة في محله حين قال في كتابه "البيان العربي" مبديا إعجابه به:" وهذا أثر من أنفس الآثار، لأنه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية وأصولها، وفقه لغتها، ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي، مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الأدب تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأى منظم وعمق في التفكير الأدبي"[3].

---

[1]/ عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، ط1 1413هـ-1913م، دار الجيل، بيروت، ص: 38 -39

[2]/ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق 1999، ص: 413.

[3]/ بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة أنجلو المصرية للطباعة والنشر، ط2، مطبعة الرسالة، 1377هـ-1958م ص: 94.

كما نجد عبد المتعال الصعيدي يقول في مقدمة كتاب سرّ الفصاحة: "وقد كان لهذا الوضوح في آراء الخفاجي وأغراضه أثره في كتابه "سرّ الفصاحة" فأسلوبه فيه أسلوب أدبي علمي ممتاز، لا يطغى فيه ذوق الأديب على، ذوق العالم، ولا يطغى فيه ذوق العالم على ذوق الأديب"[1].

صحيح أن كتاب سرّ الفصاحة قد انتقد في بعض الأحيان، إلا أن أغلب العلماء قد رأوا أن هذا الكتاب عظيم، كامل، وأنه جاء مُوضحا لبعض العلوم كاشفا لكنهها كالبلاغة، مبيّنا حقيقة أسرار الفصاحة في اللغة العربية.

[1]/ ينظر: ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، د ط، 1372هـ-1952م، ص: (د– هـ)

المبحث الأوّل

الاتجاه البنيوي في كتاب سرّ الفصاحة

تمهيد:

لقد كان للبنيوية عدة تعريفات نذكر منها تعريف اللغويين الغربيين تعريف إميل بنفنست حيث يعرفها قائلا :" البنية هي ذلك النظام المنسق الذي تتحد كل أجزائه بمقتضى رابطة تماسك وتوقف تجعل من اللغة مجموعة منتظمة من الوحدات ، أو العلامات المنطوقة التي تتفاعل ويحدد بعضها على سبيل التبادل"[1]، وهو يعني بذلك أن البنية مجموعة من الأنظمة المتناسقة الذي يعتمد كل منها على الآخر ، وليست مجرد جميع بين العناصر فقط كما يرى البعض ، وإنما كل عنصر متعلق بالآخر ويكمله، فلا أهمية للعنصر لوحده ، ولا يستطيع أن يكون ذا معنى ودلالة إلا عند تناسقه مع العناصر الأخرى.

ويعرفها كذلك لالاند بقوله:" إن البنية هي كل مكون من ظواهر متماسكة، أو متضامنة بحيث يكون كل عنصر فيها متعلقا بالعناصر الأخرى، ولا يستطيع أن يكون ذا دلالة إلا في نطاق الكل"[2].

ومن بين اللغويين العرب نذكر تعريف الخليل فهو ممن عرفوا البنيوية حيث قال:" بأنها موقف فلسفي يزعم أن ما يدعى بالحقيقة ما هي إلا تصور ذهني عند الإنسان، معتقدا أنه تقصاها واكتشفها "[3]، ومنه فإن البنيوية حسب الخليلي ترى أن ما يسمى الحقيقة ما هو إلا وهم من صنع عقل الإنسان.

وترتكز البنيوية على ثلاثة قوانين هي:

-الكلية: أي الأجزاء تعمل بوصفها كلا، لا أجزاء منفصلة. فالنص الأدبي يشبه جزئية الماء التي تتكون من تكامل ذرات الأكسجين والهيدروجين، بحيث إن هذا التكامل وحده هو الذي يحدد وجود وطبيعة هذه الجزئية، أي أن البنيوية تتجسد في الإطار العام المكتمل.

-**التحول:** أي إن كل بنية خاضعة لتحول داخلي ناتج عن تفاعل عناصرها وما يوجد بينها من علاقات، أي أنها تمنح البنيوية حركة داخلية.

---

[1]/ جمعة العربي الفرجاني، أسس النظرية البنيوية في اللغة العربية، المجلة الجامعة، العدد الثامن عشر، المجلد الأول، يناير 2016م، ص: 6

[2]/ نفسه، ص: 6

[3]/ نفسه، ص :6

-**التنظيم الذاتي**: هذا التحول خاضع لنظام هو نظام البنية المستقلة التي تخضع لها عناصرها الداخلية، ولا دخل فيه للعوامل الخارجية.

إذا وعلى العموم فإن البنيوية منهج نقدي داخلي يقارب النصوص مقاربة آنية محايثة تتمثل النص بنية لغوية متعالقة ووجوداً كليا قائما بذاته، مستقلا عن غيره[1].

من التعريف السابق نستنتج أن النظرية البنيوية تمكننا من دراسة العلاقات بين الأجزاء وعناصر المجموعة، وتحليلها وإعادة تركيبها من أجل فهم البنية الخفية للنص، ومن بين هذه العلاقات نجد ثنائية، اللغة والكلام، والتلفظ والكتابة، والدال والمدلول، والاستبدالية والتركيبية فسأحاول في هذا المبحث أن أبين كيف تجسدت البنيوية في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي.

المطلب الأول: اللغة والكلام:

يرى دي سوسير أن اللغة نظام جماعي، أي يشترك فيه أفراد الجماعة، وهي نظام محدد بقواعد وقوانين مشتركة، وهي مستقلة عن الفرد أو هي:" تلك الصفة التي تميز الذات الإنسانية القائمة على العملية التواصلية والتي جعلتها هذه الأخير تمتاز بها عن باقي الكائنات الحية "[2].

إذا اللغة تميز الإنسان عن الكائنات الحية الأخرى وتجعله يتعامل مع الجماعة، "فاللغة نتاج اجتماعي لملكة فردية هي ملكة الكلام، كما أنها مجموعة من المصطلحات التي يتبناها النظام الاجتماعي يمكن أفراده من ممارسة الكلام، فهي كل قائم بذاته، ومبدأ يخضع للتصنيف"[3] فاللغة عمل جماعي مستقل عن الفرد متواجدة في ذهن المتكلمين بطريقة اعتباطية لا شعورية فهي مجموع الأصوات والدلالات المختزنة في ذاكرتهم [4].

ومنه نستخلص مما سبق أن اللغة:

- نظام (صوتي، صرفي، نحوي).
- أنها جماعة (تشترك فيها أفراد الجماعة اللغوية الواحدة).

---

[1]/ ينظر: يوسف وغليسي، الدراسات اللغوية، مجلة علمية لغوية متخصصة ومحكمة تصدر عن مختبر، مختبر الدراسة اللغوية جامعة منثوري-قسنطينة، العدد 06، 1431هـ-2010م.

[2]/ مختار لزعر- وحنيفي بن ناصر اللسانيات النظرية وتعميقاها المنهجية، د ط، الجزائر، مارس 2009، ديوان المطبوعات الجامعية للنشر والتوزيع، ص:45.

[3]/ ينظر: بزة عبد الرحمان مصباح عبد الرحمان، البنيوية اللغوية عند فاردیناند دي سوسير، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته العدد 14ديسمبر، ص: 67.

[4]/ ينظر: نفسه، ص: 67.

- أنها مجردة، أي موجودة وجود تقديري في العقل.
- أنها ثابتة (لأنك لا تقدر أن تغير ما في ذهن الإنسان).
- أن اللغة في العقل، يعني ذلك أنها داخلية.

أما بالنسبة للكلام ضمن الاتجاه البنيوي، فهو عندهم متغير لأنه يختلف من مجموعة إلى أخرى، وبما أننا قلنا سابقا في البنيوية أن اللغة نظام فالكلام عند البنيوية هو تجسيد لذلك النظام كما أن الكلام " نتاج فردي حرب وإرادي يختاره المتحدث من ذلك المخزون ليعبر به عن فكره أو رسالته"[1]، فالكلام إذا يختص بإرادة الشخص وبقدرته على توصيل أفكاره بواسطة ذكائه وبالتالي يعتبر الكلام ممارسة فردية ذاتية.

والكلام في نظر سوسير هو:" تجسيد للغة، من حيث هو إنجاز فردي، لقواعد اللغة، بل إنجاز فعلي ملموس، يقوم بتجسيد آلي فعلي لنظام لغوي اجتماعي، تجسيدا فرديا ليحوله من الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل، وهو منظومة خارجية وداخلية، ووسيلة مرتبطة بإرادة الفرد المتكلم، ودراسته تساعد على اكتشاف اللغة، يخضع لحركتين متمازجتين، حركة الصوت الفيزيولوجي، والحركة النفسية الذهنية للمتكلم، للتعبير عن فكره الشخصي"[2].

وفي الأخير نستنتج أن الكلام عند البنيوية هو:

- تجسيد آلي وفعلي لنظام اللغة.
- هو إنجاز فردي.
- محسوس.
- أنه متغير، أي إنه منطوق، لأنه يختلف من مجموعة إلى أخرى.

لقد خصص ابن سنان الخفاجي فصلا كاملا في الحديث عن اللغة وهو يرى أن اللغة مواضعة بين بني البشر، وتجلى ذلك في قوله: "اللغة عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام أو يكون توقيفا، يقال في لغة العرب: إن السيف القاطع حسام، أي تواضعوا على أن سموه هذا الاسم "[3].

---

[1]/ ينظر: نعيمة السعدية، سوسير ولسانيات الكلام هل كان يدرك ...؟، ندوة المخبر، (اللسانيات مائة عام من الممارسة)، قسم الآداب واللغة العربية، محمد خيضر –بسكرة، ص: 4.

[2]/ بوحوش رابح، اللسانيات وتحليل النصوص، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط 2، الأردن، (1430هـ- 2009م) ص: 4.

[3]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 43.

وقال أيضا: "والصحيح أن أصل اللغات مواضعة، وليس بتوقيف"[1]؛ بمعنى أن يتواضع اثنان أو أكثر من الناس على تسمية شيء بالاسم الذي يرضونه ويتواضعوا عليه ويبدعون فيه.

وحين قال: "وأما إذا تقدمت المواضعة بيننا، وخاطبنا القديم تعالى بها، علمنا مراده لمطابقة تلك اللغة، وقد يجوز فيما بعد أصل اللغات أن يكون توقيفا من الله عز وجل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة :31] على مواضعة تقدمت بين آدم عليه السلام وبين الملائكة على لغةٍ سالفةٍ ممن خاطبه الله تعالى على تلك اللغة ، وعلّمه الأسماء ولولا تقدّم لغة لم يفهم عنه عزّ اسمه "[2]، إن هذه الآية الكريمة السابقة اختلفوا في تفسيرها فالقائلين أن اللغة توقيف يستخدمونها حجة ويفسرونها بقولهم أن الله صانع هذه اللغة وهي إلهام ووحي من عنده من بين هذه الآراء نذكر ابن عباس فكان يقول:" علَّمه الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل ،وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها"[3].

فاللغة حسب قوله هي من توقيفية على الله عز وجل. وأما القائلين أن اللغة هي اصطلاح وتواضع كابن سنان الخفاجي فرأى أن الآية تعني أن اللغة مواضعة بين آدم عليه السلام وبين الملائكة ، وفي نفس السياق يقول الفارابي :" فهكذا تحدث أولاً حروف تلك الأمة وألفاظها الكائنة عن تلك الحروف ، ويكون ذلك أولاً ممن اتفق منهم ، فيتفق أن يستعمل الواحد منهم تصويتا أول لفظة في الدلالة على شيء ما عندما يتخاطب غيره فيحفظ السامع ذلك فيستعمل السامع ذلك بعينه عندما يخاطب المنشئ الأول لتلك اللفظة ، ويكون السامع الأول قد احتذى بذلك فيقع به فيكونان قد اصطلحا وتواطآ على تلك اللفظة ، فيخاطبان بها غيرهما إلى أن تشيع عند الجماعة"[4].

وابن سنان الخفاجي ميز في قوله اللغة العربية عن سائر اللغات وفضلها، فهو يرى أنها أكثر اللغات اختصاراً في إيصال المعاني، ويقول:" فإذا كانت لغة تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار فهي أولى بالاستعمال"[5]، ويقصد بذلك أن اللغة بالعربية هي كفيلة بذلك ودليله يحكي

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 43

[2]/ نفسه، ص: 43

[3]/ أحمد ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، ط1، بيروت لبنان، 1414هـ- 1993م، ص: 36.

[3]/ الفارابي، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرف، د ط، بيروت لبنان، 1986، ص 137.

[5]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 44.

على أبوداود المطران –بأنه أخبره أنه إذا نقلت الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبحت وإذا نقل الكلام من السرياني إلى العربي زاده حسنة وجمالاً.

وفي كلام "ابن سنان" على اللغة العربية، ذكر أنه ما يدل على فضلها وتقدمها على جميع اللغات، أن أربابها هم العرب بحيث قال:" وإن كانوا تواضعوا على هذه اللغة فلم يكن تنتج أذهانهم الصقلية، وخواطرهم العجيبة، إلا شيئا خليقاً بالشرف وأمراً جديراً بالتقدم، وإن كانت توقيفا من الله تعالى لهم، ومنة من بها عليهم"[1].

وفي حديثه عن اللغة يقول:" قالوا مما اختصت به لغة العرب من الحروف وليس هو في غيرها حرف الظاء، وقال آخرون: حرف الظاء والضاد، ولذلك قال أبوا الطيب المتنبي، ولهم فخر كل من نطق الضاد "[2].

بهذا يوضح لنا أن ما جعله يميز اللغة العربية عن سائر اللغات هو حرف الظاء الذي لا نجده في أي لغة غير اللغة العربية.

لقد ذكر "ابن سنان الخفاجي" في كتابه سرّ الفصاحة تفصيلا في الكلام وذلك بعقد فصل كامل فيه، حيث عرفه قائلا :" الكلام اسم عام يقع على القليل والكثير ... والكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها ، على ما بيناه من أننا لا نذكر إلا حروف اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، والكلام وحده ما انتظم من حرفين فصاعداً من الحروف المعقولة إذا وقع ممن تصح عنه أومن قبيله الإفادة ، وإنما اشترطنا الانتظام لأنه لو أتى بحرف ومضى زمان أتى بحرف آخر لم يصح وصف فعله بأنه كلام "[3]، ويعني قوله هذا الكلام هوما كان في حرفين أو أكثر كقولنا : أم –عم–أخ ، فالحرف الواحد لا يعتبره كلاماً ، ويرى أن الحروف حتى وإن وجدت فهي لا تكفي لتصبح كلاما ، بل يشترط فيها النظام .

وحين قال:" واشترطنا وقوع ذلك من بصح منه أومن قبيله الإفادة لئلا يلزم عليه أن يكون ما يستمع من بعض الطيور كالببغاء وغيرها كلاماً، وقلنا القبيل دون الشخص لأن ما يسمع من المجنون

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 46.

[2]/ نفسه، ص 50.

[1]/ ينظر: ابن سنان الخفاجي ، مصدر سابق ، ص:28

[2]/ نفسه ، ص: 28

يوصف بأنه كلام، وإن لم تصح منه الفائدة وهو بحالة لكنها تصح من قبيله، وليس كذلك الطائر"[1] وذلك أنه يرى أن كل كلام نعقله ونفهمه يعد كلاماً سواءً حقق فائدة أولم يحقق والذي يسمع من الطيور كالببغاء لا يعده كلاما ذلك أن الكلام نتاج فكري، والطيور لا فكر لها. وقال أيضا:" قد حد الكلام بحدود غير صحيحة، كحد بعض النحويين له بأنه فعل المتكلم وكذلك حد بعض المتكلمين له بأنه ما أوجب كون المتكلم متكلماً، وقول غيره: ما يقوم بذات المتكلم"[2]، وهو بقوله هذا يعني أن هناك حدود وضعها النحويين والمتكلمين غير صحيحة، فهم يرون أن الكلام ما كان لفائدة فقط، وأن الكلام هوما يقع في نفس المتكلم، وبالتالي حسب منظورهم هو كيان نفسي.

وفي تقديم ابن سنان حجته على أن الكلام ليس بمعنى في النفس قال:" والذي يدل على أن الكلام ليس بمعنى في النفس أنه لوكان معنى زائدًا على المعاني المعقولة الموجودة في القلب كالعلم وغيره، لوجب أن يكون إلى معرفته طريق من ضرورة أو دليل"[3].

إذا وبهذه الرؤية التي يراها ابن سنان، نستنتج أن رأيه من رأي المعتزلة، ونذير نفس النظرة التي ترى بيها المعتزلة الكلام إذا أنهم يعدون الكلام النفسي أمراً خياليا لا دليل على وجوده من وجدان أو برهان.

ومنه يرى "ابن سنان " أن الكلام هوما انتظم من حرفين فصاعداً، وهو يعتبر كل ما يعقل ويفهم كلام سواء تكلمنا به أم لم نتكلم، المهم يكون في عقلنا، وبالتالي الكلام هو نتاج فكري عقلي، وهو ضد أن يقال عن الكلام أنه نفسي.

وفي تفصيله أكثر عن الكلام يقول إنه "على ضربين: مهمل ومستعمل، فالمهمل هوا لذي لم يوضع في اللغة التي قيل له: مهمل، لشيء من المعاني والفوائد، والمستعمل: هو الموضوع لمعنى أو فائدة، وينقسم إلى قسمين: أحدهما كله معنى صحيح وإن كان لا يفيد فيما سمي به، والآخر: هو المفيد "[4]، كما أبان أن المتكلم من وقع منه الكلام قصداً يحسب حاله وإرادته واعتقاده.

---

[3]/ نفسه ، ص: 34

[4]/ نفسه، ص: 36

[4]/ نفسه، ص: 38

ومنه، وبعد رؤية تعريف البنيوية للكلام، وبين نظرة "ابن سنان الخفاجي" له وجدنا أنّهما يتفقان، فالبنيوية ترى أن الكلام عقلي، وكذلك هو الحال مع «ابن سنان الخفاجي"، فهو يرى أنه نتاج فكري، ونابع من العقل.

المطلب الثاني: الأصوات والحروف:

تعتبر دراسة الصوت اللغوي لدى دي سوسير من أهم القضايا ولقد استبعد الكتابة من الدرس اللساني، ودعا إلى البدء من الصوت اللغوي ويقول دي سوسير: "إنّ الغرض اللساني لا يتحدّد بتنسيق الترابط بين الكلمة المكتوبة والأخرى المنطوقة، وإن هذه الأخيرة تشكل وحدها هذا الغرض"[1].

وبهذا فدي سوسير يعطي أهمية للصوت لكونه ذا طبيعة سمعية ، ونلاحظ اهتمامه حينما رأى اللغة في مفهومها الصوري الشكلي الذي يتمثل في طبيعة الأصوات ، وحينما رأى أن اللغة نظام (صوتي، صرفي ،نحوي) ، فهو بذلك قد جعل الصوت من أهمّ ما يكون في اللغة ، ونلاحظ كذلك إعطائه أهمية للصوت حينما جعل أول قسمين من أقسام دورة الكلام تعتني بالصوت، "القسم الاول هو القسم الفيزيائي ويتعلق بالموجات الصوتية ، والقسم الثاني هو الفيزيولوجي ويشمل التصويت والسمع معا"[2]، ومنه فإن الصوت عند دي سوسير طبيعي ، وغاية في درس اللغة ، وهو علامة أصلية .

لقد اهتم "ابن سنان الخفاجي" في كتابه سرّ الفصاحة بالصوت فكان أول فصل عقده في الكتاب هو فصل في "الأصوات " ابتدأ في هذا الفصل بتعريف لغوي للأصوات فقال:" مصدر صات الشيء يَصُوت صوتاً فهو صائت، وصوّت تصويتاً فهو مصوّت، وهو عام ولا يختص يقال: صوت الإنسان وصوت الحمار، وفي الكتاب الكريم: ﴿**إِنَّ أَنكَرَ اَلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ اَلْحَمِيرِ**﴾ [لقمان :19] فكما نلاحظ هذا التعريف يتوافق وتعريف ابن جني.

بعد ذلك وصل "ابن سنان الخفاجي طبيعة الصوت الإنساني فقال:" والصوت معقول لأنه يدرك، ولا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك وهو عَرَض ليس بجسم، ولا صفة لجسم والدليل

[1]/ طيب الدبة، مبادئ اللسانيات البنيوية، دار القصبة للنشر، د. ط، الجزائر، 2001م، ص: 75.

[2]/ هناء سعداني، لسانيات فرديناند دي سوسير، محاضرة 1، مقياس المدارس اللسانية السنة الثانية، دراسات أدبية، ص: 4

على أنه ليس بجسم، أنه مدرك بحاسة السمع "[1]،يقصد بأنه ليس بجسم، أي أنه غير ملموس، وأننا نسمعه لكن لا يمكن أن نراه إذا فإدراك الصوت يكون معقول، وبهذا القول يحاول أن يبين حالة السمع التي تكون في الصوت، وأن صوت الإنسان يختلف عن غيره من الأصوات.

وقال أيضا في تقديمه دليل على أن الصوت ليس بصفة لجسم: " أن الصوت لوكان صفة لم يخل من أن يكون صفة ذاتية أو غير ذاتية، ولا يجوز أن يكون صفة غير ذاتية، لما بيناه من أن الإدراك لا يتناول إلا الصفات الذاتية، والصوت مدرك بلا خلاف"[2]، فهو يعني بكلامه هذا أن الصوت غير مدرك بصريا، وأن الأصوات لا تُرى كما نرى الألوان.

وقال:" الأصوات تدرك بحاسة السمع في محالها ، ولا تحتاج إلى انتقال محالها وانتقالها وكونها أعراضا منع من انتقالها[3]، فيها يفسر لنا "ابن سنان " اختلاف الصوت الإنساني عن الأصوات الأخرى ، لذلك نراه في قوله يؤكد على وجوب بقاء الصوت في محاله ، ورفض عدم انتقاله ، لأن ذلك الانتقال يؤثر سلبا على تغير هيئة ومخرج الصوت ، وختم "ابن سنان " فصله في "الأصوات "بوصفه لكيفية خروج الصوت من الفم فقال:" والصوت يخرج مستطيلا ساذجا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً "[4]، فهو بهذا يثبت لنا أهمية الربط بين الصوت والحرف وتكاملهما معا ، فجاء بعد ذلك مباشرة بفصل آخر سماه فصل في "الحروف".

أما عن الحروف عند "ابن سنان الخفاجي" فقد خصص لها فصلا كاملاً سماه بفصل "الحروف " وكان اهتمامه لها من نفس اهتمامه للصوت ، فبدأ في هذا الفصل بالحرف فعرفه قائلا:" الحرف في كلام العرب يراد به حدّ الشيء وحِدّتِهِ ، ومن ذلك حرف السيف إنما هو حده وناحيته"[5]، وفي تعريف آخر للحرف عند "ابن سنان الخفاجي " قال:" وسميت الحروف حروفاً لأن الحروف حد منقطع الصوت ، وقد قيل إنها سميت بذلك لأنها جهات للكلام ونواح ، كحروف الشيء وجهاته"[6]،

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 14

[2]/ نفسه، ص: 16

[3]/ نفسه، ص: 18

[4]/ نفسه، ص: 19.

[5]/ نفسه، ص: 20

[6]/ نفسه، ص: 20.

إذا وحسب هذه التعريفات اللغوية للحرف يعني بذلك نهاية الشيء ، وبما أن هذين التعريفان يتوافقان مع ما قاله في وصفه لكيفية خروج الصوت من الفم وذلك في فصل الأصوات الذي سبق وأن ذكرته ، ويتوافق كذلك مع قوله: " والحروف تختلف باختلاف مقاطع الأصوات ، حتى شبه بعضهم الحلق والفم بالناي ، لأن الصوت يخرج منه مستطيلا ساذجاً[1]، فإنه يقصد بهاذين التعريفين للحرف ، أن الحرف هو نهاية الصوت ، وأن جهة الحرف واحد تتحدد جهة الكلام التي هي من عمل المتكلم ، وفي شرح "ابن سنان الخفاجي" حول تسمية أهل العربية الحروف وذلك حسب الوظيفة التي تؤديها ، فانقسموا في ذلك إلى تسميتين أولهما سموها- أدوات المعاني- وذلك في قوله :" أما تسمية أهل العربية أدوات المعاني- نحو من ، وقد -حروفا فإنهم زعموا أنهم سموها بذلك لأنها تأتي في أول الكلام وآخره ، فصارت كالحروف والحدود له ، وقد قال بعضهم : إنما سميت حروفاً لانحرافها عن الأسماء والأفعال ، وهي عندنا نحن كلام لأنها منتظمة من حرفين فصاعداً[2].

وثانيهما قالوا أنها تسمى -بحروف المعجم- وذلك في قوله :" وأما قولهم للحروف التي في لغة العرب :حروف المعجم ، فليس بصفة للحروف ، لأن ذلك يفسد من وجهين :أحدهما :امتناع وصف النكرة بالمعرفة ، والثاني إضافة الموصوف إلى صفته ، والصفة عند النحويين هي الموصوف في المعنى ومحال أن يضاف الشيء إلى نفسه.[3]أما بالنسبة لرأيه فهو يرجح أن القول الصحيح هو قولهم -أدوات المعاني- ورفضه بالقول -حروف المعجم- وحجته في ذلك قوله :" وهي عندنا نحن كلام لأنها منتظمة من حرفين فصاعداً."[4]وفي تعليلنا إلى الرأي الذي ذهب إليه "ابن سنان" هو إشارته لدلالة الحرف على معنى خاص في نفسه.

وبعد ذلك عدّد "ابن سنان الخفاجي" حروف العربية وقال أنها تسعة وعشرون حرفاً :" وهي الهمزة والألف والهاء والعين والغين والخاء والقاف والكاف والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والثاء والفاء والباء والميم والواو، فهذا ترتيبها في المخارج"[5]، وهو بهذا النظام خالف الخليل في تنظيمه للأصوات، وبعد أن عدّ "ابن سنان

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص: 23.

[2]/ نفسه، ص: 21.

[3]/ نفسه، ص: 21-22

[4]/ نفسه، ص: 21.

[5]/ نفسه ، ص: 23.

الخفاجي " الحروف العربية الأصلية ، انتقل إلى الحديث عن أنواعها الفرعية في الاستعمال ، فمنها ما استحسن في الاستعمال ،ومنها التي لا تستحسن فقال :" فالتي تحسن ستة حروف : وهي النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم ، والهمزة المخففة ، وألف الإمالة ، وألف التفخيم ، والصاد التي كالزاي ، والشين التي كالجيم "[1].

لقد تطرق "ابن سنان" إلى الحروف المستحسنة بطريقة تثبت المستعمل مع الأصول في العربية ولابد من أنها تتوافق نطقا وسمعاً مع لغة القرآن، ولوكان عكس ذلك لما استحسنت.

أما بالنسبة الحروف التي لا تستحسن قال:" والحروف التي لا تستحسن ثمانية: وهي الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والطاء التي كالتاء، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والظاء التي كالثاء، والفاء التي كالباء"[2].

تحدّث "ابن سنان" بعدها عن مخارج الحروف قال إنها ستة عشر مخرجا، هذه الحروف منها ما هو مجهور والمهموس، ومنها المنطبقة والمنفتحة، ومنها أيضا حروف الاستعلاء وحروف الانخفاض، ومنها حروف الذلاقة والمصمتة، وتحدث كذلك في آخر فصل "الحروف" عن انقسامات الحروف فقال:" وللحروف أيضا انقسام إلى صحة والاعتلال والزيادة والسكون والحركة وغير ذلك مما أكثر علاقته بالنحو"[3].

كل هذه التفاصيل التي تخص الحروف ذكرها " ابن سنان " ووضّحها واعتنى بها دلالة على أن اهتمامه بالحروف من نفس اهتمامه بالأصوات.

المطلب الثالث: الدال والمدلول (العلامة اللسانية):

يعرّف دي سوسير العلامة اللسانية على أنها حد الكلمة، أي هوما يجمع بين اسم وشيء حيث قال:" إن الصفة النفسية لصورنا السمعية لتبدو جيدة عندما نلاحظ لساننا الخاص، إذا بإمكاننا أن تتحدث إلى أنفسنا أو نستظهر ذهنيا مقطعا من الشعر من دون تحريك الشفتين

[1]/ ينظر: ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص: 25.

[2]/ ينظر: نفسه، ص: 25-26

[3]/ نفسه، ص: 27.

أو اللسان"[1]، وفي تعريف آخر يرى سوسير: " أن العلامة اللسانية لا تربط شيئًا باسم بل تصوراً بصورة سمعية"[2]، إذا فالعلامة اللسانية هي الصورة السمعية +المفهوم، أي الدال +المدلول

ويسمى "الدال" أيضا بالصورة السمعية وهو عند سوسير :" اختيارًا صوتيا ، تواضع عليه أهل اللغة الواحدة للدلالة على مدلول معين"[3]، ومنه فالدال هو اللفظ الذي يتفق عليه مجموعة ذات لغة واحدة ، وذلك بغرض التغيير على معنى معين موجود في الذهن ، وهو ذو صورة سمعية وبمفهوم آخر هوا لأثر النفسي ، الذهني الداخلي الذي تتركه الكلمة .ويسمى "المدلول" بالمفهوم أو الصورة المفهومية التي تعبر عن الصورة الموجودة في الذهن ، والمدلول عند سوسير : " هو مجموع السمات الدلالية التي تحيل إليها الكلمة مثلا :كلمة جمل (حيوان صحراوي ، ضخم الجثة ، صبور ...)"[4] ومنه إن المدلول هو التصور الموجود في أذهاننا ، أو بمفهوم آخر هو صورة الأشياء الخارجية في الأذهان .

"إذا العلامة اللسانية عند دي سوسير هي مركب يتكون من وجهين هما الدال والمدلول لا يمكن الفصل بينهما لأنهما يرتبطان بعلاقة تواضعية والتي يرى دي سوسير أن علاقة اعتباطية أي علاقة غير معللة بالمنطق".[1] وقد ذكر في هذا السياق مثلاً لفظ[5]

(الأخت) (sœur) يقول:" إن معنى هذا اللفظ ليس مرتبطاً بأية علاقة قد نتخيلها موجودة داخل سلسلة أصوات لفظ (الأخت) s-â-r، وهي أصوات اتُّخِذتْ وسيلة كصوت دالٍّ. لأنه يمكن لهذه أن تُصوَّر بأية سلسلة أخرى من الأصوات تكون دالة "[2]، فإذا كانت العلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة اعتباطية فإن الرابط الأساسي بينهما هو اللسان بوصفه نظاماً من العلاقات ويقول دي سوسير :" إن الدلالة اللغوية لا تجمع بين شيء و اسم ، و إنما تجمع بين مفهوم وصورة سمعية ، وهذه الأخيرة ليست هي الصوت المادي ، أي شيء فيزيائي خالص، بل هي بصمة نفسية لهذا

---

[1]/ طيب دبة، مبادئ اللسانيات البنيوية، مرجع سابق، ص: 77.

[2]/ نفسه، ص: 78

[3]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص: 79

[4]/ ينظر: بن زروق نصر الدين، دروس ومحاضرات في اللسانيات العامة، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط 1، الأبيار– الجزائر، (1432هـ -2011 م)، ص: 16.

[5]/ https://almichware.ahlamontada.net/t406-topic ، السبت 13 مارس 2010 ، 09:04 am

الصوت وهو التمثيل الذي تقدمه عنه حواسنا."[1]بهذا نفهم أن دي سوسير قد أقصى الواقع الخارجي الذي تشير إليه العلامة اللسانية وهو يرى أن الدال والمدلول يرتبطان بعلاقة تواضعية .

لقد تجسّد الحديث عن الدلالة عند " ابن سنان الخفاجي " في كتابه سرّ الفصاحة، وذلك في موضعين، الأول حين تحدث عن مظاهر المواضعة في فصل اللغة، والثاني عندما ذكر مظاهر اللغة الأربعة وذلك في فصل "الكلام في المعاني المفردة."

عندما قال "ابن سنان الخفاجي " في كتابه سرّ الفصاحة أن "اللغة عبارة عما يتواضع القوم عليه من كلام "[2]،حينها كان يقصد أن القوم يتواضعوا ويتفاهموا ليجعلوا لكل دال مدلول، وبهذا قد بين "ابن سنان الخفاجي" أن الإنسان كيف يتعامل ويتعايش مع الواقع الخارجي حين يتواضع ويبتكر لغة تتكون من رموز التي هي دال لمدلول وفق تصوره المشي خارج مجتمعه.

"وقد أصبح هذا التصور لعالم الأشياء محورًا أساسيا في النظرية الدلالية الإحالية التي جاء بها ريتشارد و أوغدن في كتابهما "معنى المعنى" حيث قدمت نظريتهما الدلالية التي حددا فيها أركان الدلالة من حيث هي نتاج تفاعل العناصر الآتية : الرمز : ويدل الرمز على الكلمة المنطوقة المكونة من مجموعة الأصوات الفكرة أو المفهوم : وهو الصورة الذهنية التي يتصورها الإنسان من خلال المدلول"[3] ويتوافق مع هذا الطرح عند "ابن سنان الخفاجي " في موضع آخر ، وذلك حين تحدث عن مظاهر اللغة الأربعة في فصل "الكلام في المعاني المفردة " والذي يقول:" ولها في الوجود أربعة مواضع : الأول وجودها في أنفسنا ، والثاني : وجودها في أفهام المتصورين لها ، والثالث وجودها في الألفاظ التي تدل عليها ، والرابع وحدها في الخط الذي هو أشكال تلك الألفاظ المعبر بها عنه"[4]، بهذا يوضح ابن سنان أهمية اللغة ، وأهمية وجودها عند الإنسان وذلك بتحقيق التواصل مع المحيط الخارجي الذي ينتمي إليه ، فهذا النص قدم لنا صورة للدال والمدلول وكيف تجلى عند الإنسان وبهذا نستنتج أن :

---

[1]/ ماري بان آفلو- جورج إليا سرقاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، 2012، ص: (117-118)

[2]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 43.

[3]/ ينظر: نور الهدى حسني، الدرس اللغوي عند ابن سنان الخفاجي، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، (2015-2016)، ص: 286.

[4]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 224

حضور اللغة في النفس ووجودها في أفهام المتصورين لها ، وهو نفسه الفهم وإفهام المتلقي ،وذلك من خلال ألفاظها ، والتي نطلق عليها (الدال والمدلول).

وأخيرا يمكننا أن نقول أن العلامة اللسانية عند "ابن سنان الخفاجي " تتواجد في النفس وفي فهم الطرف الآخر لها ، وتتواجد في الألفاظ ، أي النصوص التي هي عبارة عن دال ، ويرى "ابن سنان الخفاجي " أن هذه المظاهر الأربعة موجودة في الألفاظ التي نؤلفها في الكلام ، المنظومة على طريقة الشعر والرسائل وما جرى مجراهما، ومن هنا يلاحظ المتأمل ويدرك أن تصور «دي سوسير" في العلامة اللسانية يختلف تمامًا مع ما يراه "ابن سنان الخفاجي " ، فالأول قد أقصى الواقع الخارجي الذي تشير إليه ، العلامة اللسانية في حين أن الآخر أعطى أهمية للواقع الخارجي ودوره في تكون العلامة اللسانية .

المطلب الرابع: الاستبدالية والتركيبية:

يشير سوسير بأن اللغة تعمل وفق محورين أساسين وهما محور التراكيب ومحور الاستبدال "فحين ينظر إلى العلامات في تتابع خطي يطلق على العلاقة اسم العلاقات الخطية أو الأفقية وحين ينظر إلى العلامة الموجودة بوصفها مقابلة لعلامات أخرى في اللغة تسمى العلاقة بينهما اسم العلاقة الجدولية أو الاستبدالية"[1]، بمعنى أن عملية التكلم أو الكلام تتم وفق خطوتين : الخطوة الأولى: يتم فيها استحضار الكلمات من المحور الاستبدالي الذي يكون في الذهن ، والثانية من خلال تجميع هذه الكلمات وتركيبها على نحو معين ، يعني ذلك حتى أركب الكلمات استحضرها من المحور الاستبدالي .

يطلق هذا المصطلح "العلاقات الاستبدالية «على العلاقات التي تتحقق وظيفتها بين الوحدات اللغوية التي يمكن أن تحل محل بعضها بعض في سياق واحد، وبعبارة أخرى فإنها تعكس علاقات موجودة بين علامة في جملة ما وعلامة أخرى غير موجودة في الجملة أصلا بل موجودة في أذهاننا طبعا "[2]، فمحور الاستبدال يحتوي على مجموعات أو حقول من الكلمات ، أو حقول صرفية أو حقول دلالية وذلك يكون في الذهن ، فالكلمات التي يمكن أن تتخذ صيغة معينة تنتظم في ذهن المتحدث ليختار منها المناسب مثل وزن فَعَلَ : نجمع كل الكلمات التي تكون على وزن فعل مثل

[1]/ ينظر: نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن، 2009، ص:78.

[2]/ أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 3، بن عكنون- الجزائر 2007، ص:131

(ضَرَبَ ، خَرَجَ، دَخَلَ)، يتمثل هذا النوع من العلاقات الأفقية التركيبية «على الوحدات اللغوية ضمن السلسلة الكلامية الواحدة ، كالعلاقة بين أصوات الكلمة الواحدة وكلمات الجملة الواحدة ونفضي كل وحدة معنى إضافيا على الكل ، وتكون في حالة تقابلية مع بقية الوحدات اللغوية الأخرى ولا تكتسب قيمتها إلا بتقابلها مع الوحدات اللغوية الأخرى ، ولا تكتسب قيمتها إلا بتقابلها مع الوحدات التي تتبعها أو تليها أو ترافقها، وتدعى هذه الأنساق الخطية –تراكيب"[1] فالعلاقة التركيبية هي توالي الوحدات اللغوية على شكل محور خطي أفقي بمعنى أنه من أجل التركيب من الضروري أن أستحضر الكلمات من حور الاستبدال الذي هو كما قلنا سابقا محور ذهني غائب إلى محور الحضور لأني أريد الكلام فالكلام لا يكون إلا من خلال الاستحضار.

بما أن "ابن سنان الخفاجي" قد تحدث في كتابه عن أسرار الفصاحة فما من بُدّ أن يتطرق إلى الثنائية الاستبدالية والتركيبية نجدها تجسدت عنده من خلال المواضعة، وذلك بوضع كل لفظ في موضعه، ومن بين العناصر التي تحدث عنها في هذه الثنائية: التقديم والتأخير، القلب الذي لا يفسد المعنى، وحشو الكلام.

1–التقديم والتأخير:

عرّف صالح الشاعر التقديم والتأخير قائلاً:" يراد بالتقديم والتأخير أن يخالف عناصر التركيب ترتيبها الأصلي في السياق فيتقدم ما الأصل فيه أن يتأخر ويتأخر ما الأصل فيه أن يتقدم والحاكم للترتيب الأصلي بين عنصرين يختلف إذا كان الترتيب لازماً أو غير لازم"[2]، إذا التقديم والتأخير هو مخالفة التنظيم الأصلي للكلام. وقد ذكر "ابن سنان الخفاجي" التقديم والتأخير في موضعين: **الأول**: في باب حسن وضع الألفاظ في مواضعها حقيقة أو مجازًا [3]، فجاء فيه الأساليب التي يأتي فيها التقديم والتأخير فيما وضع له، فيؤدي إلى الخروج عن المعنى المراد فقال:" فمن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير، حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه في بعض

[1]/ ينظر: أحمد مومن، مرجع سابق، ص: 130

[2]/ عمر بن عبد المجيد البيانيون، قواعد التقديم والتأخير عند المفسرين، ص: 16.

[3]/ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص 105.

المواضع، أو سلوك الضرورات حتى يفصل فيه بين ما يقبح فصله في لغة العرب كالصلة والموصول وما أشبههما."[1] وأعطى مثالاً في ذلك نحو قول "الفرزدق":[2]

وما مثلُهُ في الناس إلا مملّكا. ❁ أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربُهُ

بالتقديم والتأخير أفسد معناه لأن القصد منه "وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملكًا أبو أمه أبوه يعني هشاما، لأن أيا أمه أبو الممدوح "[3]، إذا ومنه فهذا التغيير الذي حدث في البيت أحدث لبساً في المعنى وصعوبة في فهم البيت.

وفي بيت آخر جاء به "ابن سنان " يبين فيه الفساد الذي أحدثه التقديم والتأخير "لعروة بن الورد العبسي":[4]

قلتُ لقوم في الكنيف تروَّحوا ❁ عشيةَ بتنا عند ماو انَ رُزَّحِ

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم ❁ إلى مستراح من حِمام مبرح

ويقول "ابن سنان الخفاجي لأن تقديره: قلت لقوم رزح في الكنيف عشية بتنا عند ما وان تروحوا تنالوا الغنى – ففصل بين الصفة والموصوف والأمر وجوابه "[5]، إذا فالتقديم والتأخير هنا فصل بين الصفة والموصوف، وبين الأمر وجوابه بالرغم من أن القاعدة تمنع الفصل بينهما وبالتالي أحيل المعنى وفسد الإعراب ومنه فإن التقديم والتأخير هنا قد أحدث عيبا في البيتين.

الثاني: في باب من شروط المناسبة بين الألفاظ وذلك في كلامه عن" حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً وإلى المؤخر مؤخراً[6]،ومثل ذلك في قول "الشريف الرضي":[7]

قلبي وطرْفي منك هذا في حمى ❁ قيظٍ، وهذا في رياض ربيع

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص :105.

[2]/ نفسه، ص: 105.

[3]/ نفسه، ص: 105.

[4]/ نفسه، ص: 105.

[5]/ نفسه، ص: 105.

[6]/ نفسه، ص: 183.

[7]/ نفسه، ص: 183.

فالشاعر في هذا البيت قدم لفظ (قلبي) وهو إذا خبر مقدم لاسم الإشارة (هذا)، وكذلك قدم شبه الجملة (منك) وشبه الجملة في محل نصب حال للمبتدأ (قلبي). ويقول "ابن سنان الخفاجي " في هذا " فإنه لما قدم –قلبي– وجب أن يقدم وصفه بأنه في حمى قيظ، فلوكان قال: (طرفي وقلبي منك) لم يحسن في الترتيب أن يؤخر قوله: (في رياض ربيع) والطرف مقدم"[1]، وفي مثال آخر عن التقديم والتأخير المستحسن عند "ابن سنان الخفاجي " في قول آخر:[2]

فاللامعات أسنّة وأسرّةٌ ❁ والمائســـات ذوابلٌ وقـــدودُ.

فعلّل استحسان ذلك بقوله " لأن القدود لما كانت مؤخرة وجب أن تكون الأسرة كذلك، وأن يقدم الأسنة كما قدمت الذوابل، وأمثال هذا كثيرة.[3]

هذه بعض الأمثلة التي ذكرها "ابن سنان الخفاجي" في التقديم والتأخير، فكما نرى هناك من الأمثلة ما استهجنها وقال إن التقديم والتأخير فيها ما زادها إلا عيبا وفسادا، وأمثلة رأى أن التقديم والتأخير فيها جاء في محله.

2–القلب الذي لا يفسد المعنى في الكلام:

القلب اللغوي، أوما يسمى كذلك بالقلب المكاني هو ظاهرة لغوية في اللغة العربية لا يمكن إنكارها، وهو" تقديم بعض حروف الكلمة على بعض"[4]، ويعد القلب من القضايا التي يلجأ إليها الشاعر أو الكاتب للملائمة بين ألفاظه، وفي تعريف آخر له هو" تغير موقع الكلمة الإعرابي عما يجب أن يكون عليه مما يؤدي إلى قلب المعنى "[5].

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص: 183.

[2]/ نفسه، ص: 184.

[3]/ نفسه، ص: 184.

[4]/محمد العمري، القلب المكاني، مجلة جامعة أم القرى، السنة السادسة، العدد الثامن، (1414هـ – 1993هـ) ص:110

[5]/ عامر بن عبد الله الثبيتي، المآخذ على فصاحة الشعر الجامعة الإسلامية، ط 1، المدينة المنورة، (1428هـ- 2007م) ص: 101

لم يعرف "ابن سنان الخفاجي "القلب ولكنه تطرق إليه في قوله:" ومن وضع الألفاظ موضعها أولا يكون الكلام مقلوبًا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه"[1]. وأعطى أمثلة في ذلك كثيرة من بينها قول الشاعر "عروة بن الورد العبسي ":[2]

فلو أني شهدت أبا ســــــعادٍ ❁ غداة غدا لمهجته يفـــــــوقُ.

وفديتُ بنفسه نفسي ومـــــالي ❁ وما ألـــــوك إلا ما أطيـــــــق.

والتقدير الصحيح: "فديت نفسي بنفسي"، فقد حذف فيه حرف الجر لكن القرطاجني (ت684هـ)، رفض هذا القول ورأى أن من باب انتحال الشعراء لأشعار غيرهم حيث قال:" وهذا أمثاله لا يجب أن يعمل عليه لأنه كلام خطأ على ما قدمناه، ويحتمل أن يكون هذا وما أشبهه مما غيره بعض الرواة لتقارب العبارات واشتباه بعضها بعض، فقد ينحرف ملفوظ الروي عن أصل وضعه قليلا فلا يشعر بذلك "[3]، إذا لهذا القليل يفتقر إلى الفصاحة، وأعطى ابن سنان الخفاجي مثالاً آخر "للفرزدق":[4]

وأطلس عسّالٍ وما كان صاحبًا ❁ رفعتُ لناري مَوْهِنًا فأتـــــاني

والتقدير الصحيح: إنما النار هي المرفوعة للذئب. و"ابن سنان الخفاجي" قد ذكر كذلك أمثلة أخرى رأى فيها غيره من العلماء القلب لكنه فنّد ذلك قائلا إنها لا يوجد بها قلب، ومن بين الأمثلة نذكر "قول الحُطيئة":[5]

فلما خشيت الهوْنَ والعير مُمسك ❁ على رغمه ما أمسك الحبلَ حافرُه.

وقد قُدر فيه: إنَّ الحبل إذا أمسك الحافر فالحافر أيضا قد شغل الحبل. وقال "ابن سنان الخفاجي " أن هذا ليس بمقلوب.

---

[1]/ابن سنان الخفاجي، المصدر السابق، ص: 108.

[2]/ نفسه، ص: 108.

[3]حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد لحبيب، دار الغرب الإسلامي، ط 3، بيروت-لبنان 1986، ص: 184.

[4]/ابن سنان الخفاجي، نفسه، ص: 109.

[5]/ نفسه، ص: 110.

وفي مثال آخر قد حمل أبو الفتح عثمان ابن جني قول "أبو الطيب": [1]

نحنُ ركبٌ مِلْجِنّ في زي ناسٍ ❁ فوق طيرٍ لها شخوصُ الجِمالِ.

والتقدير فيه: نحن ركب من الإنس في زي الجن فوق جمال لها شخوصُ طير ، لكن يرد "ابن سنان الخفاجي" قائلا :" وهذا عندي تعسف من أبي الفتح لا تقود إليه ضرورة ، ومراد أبي الطيب المبالغة على حسب ما جرت به عادة الشعراء فيقول: نحن قوم من الجن لجوبنا الفلاة والمهامه والفار التي لا تسلك ، وقلة فرقنا فيها إلا أننا في زي الإنس ، وهم على الحقيقة كذلك ، ونحن فوق طير من سرعة إبلنا ، إلا أن شخوصها شخوص الجمال ، ولا شك أيضا في ذلك"[2]،فمثل هذه الأمثلة التي ذكرها "ابن سنان الخفاجي" يثبت بها أن أحيانا تنتج نماذج شعرية يأتي فيها المعنى مختلطا من الألفاظ وحتى المشاعر ، لهذا هذا النوع من القلب لا يؤخذ به ، وهو مرفوض لأنه يبتعد عن الغاية الرئيسية في القلب، فابن سنان عندما ذكر هاته الأمثلة ، وما ورد فيها من القلب لم يذكرها من باب حسنها ، بل من باب خروجها إلى انحرافات تجعلنا نستصعب فهم المعنى الحقيقي.

3-الحشو منافعه وعيوبه عند "ابن سنان الخفاجي":

لقد ذكر "ابن سنان الخفاجي" مفهوم الحشو وقال: «ومن وضع الألفاظ موضعها أولا تقع الكلمة حشوًا ، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي إن كان منظومًا ، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثورًا ، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك"[3]، وقد قال :" وأما الحشو فإنّما كره وذم وأنكر أن خلا من الفائدة ، ولم تخل منه بعائدة ، ولو أفاد لم يكن حشوا... وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعا من القبول أحسن موقع ومدركا من الرضي ، أجزل حظ ، وذاك لإفادته إياك على مجيئه مجيء مالا معول في الإفادة عليه ولا طائل للسامع لديه ، فيكون مثله مثل حسنة تأتيك من حيث لم ترتقبها ، والنافعة أتتك ولم تحتسبها وربّما رزق الطُفَيلي ظرفا يحظى حتى يحلّ محل الأضياف الذي وقع الاحتشاد لهم والأحباب الذين

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص: 111.

[2]/ نفسه، ص: 111.

[3]/ نفسه ، ص: 139.

وثق بالأنس منهم وبهم"[1]، وهناك من يرى أن الحشو يزيد حسنا في الكلام ، وأنه هوما يمكن القارئ حصوله على زيادة في معنى الخطاب وتمامه .

وفي تفصيل أكثر للحشو ذكر "ابن سنان الخفاجي " أن هناك نوعين للحشو الأول المفيد في الخطاب، والثاني الذي لا يؤثر في الكلام.

1 –الحشو المفيد في الخطاب: ولقد قسم هذا النوع من الحشو إلى اثنين، حشو يزيد به الكلام معنى وحسنا، وآخر يفسد وينقص المعنى، مثل قول الشاعر "أبي الطيب":[2]

وتحتقر الدنيا احتقار مجرّبٍ ❁ يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

لأنه تكمن فائدة اللفظة (حاشاك) في كمال الوزن وتمامه، يقول "ابن سنان الخفاجي": لأنك إذا قلت احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانياً، كان كلاماً صحيحاً مستقيما، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دُعاءً حسنًا للممدوح في موضعه"[3].

وفي مثال آخر للشاعر "ابن محلم":[4]

إن الثمانينَ وبُلغتها ❁ قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

فتكمن لفظة –وبُلغتها– هنا تمام الوزن وكماله، وكذلك تضمنها معنى الدعاء، فحين قال –وبلغتها– جملة معترضة بين اسم إن وخبرها، يعني بها الشاعر الدعاء لمن يخاطبه، ليعطف عليه، وفي حقيقة الأمر مثل هذه الأساليب تحث القارئ على ترتيب المعاني والبحث فيما تدل عليه.

ومثال ذلك حين ذكر "ابن سنان الخفاجي" بيت "أبي الطيب": [5]

ترعرع المَلكُ الأستاذُ مكتهلاً ❁ قبل اكتهالٍ أديباً قبل تأديب

---

[1]/ ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، الناشر دار المدني، د– ط، جدة، ص: 19.

[2]ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 140.

[3]/ نفسه، ص: 140.

[4]/ نفسه، ص: 140.

[5]/ نفسه، ص: 142.

لفظ –الأستاذ– هنا حشوا أحدث فساداً وخللاً في المعنى، لمجيئها بعد كلمة (الملك)، لأن فيها انتقالاً من رتبة أعلى إلى رتبة أدنى بالرغم أن البيت كان الغرض منه المدح، إذا فهاهنا الحشو أفسد معنى البيت والغرض منه.

2– الحشو الذي لا يؤثر في الكلام: ومن بين الأمثلة التي ذكرها "ابن سنان الخفاجي" في هذا النوع من الحشو قول "أبي تمام ":[1]

جذبتُ نداه غدوةَ السبت جذبةً ❁ فخرَّ صريعاً بين أيدي القصائد

فجملة (غدوة السبت) حشو في الكلام ولا فائدة منها، بحيث لا يهم اليوم الذي أعطى فيه الشاعر هبة من الممدوح. ويقول "ابن سنان" معالجاً هذه الظاهرة:" فمثل هذا وأشباهه الحشو الذي يقع ولا تعرض في ذكره فائدة إلا ليصح الوزن، وهو عيب فاحش في هذه الصناعة، وما أكثر ما تستعمل: أمسى وأصبح وأخواتها، في هذا الموضع من الحشو ويجب أن تعتبر ذلك بأن تنظر الفائدة فيه"[2].

وعليه نقول إن قضية ثنائية الاستبدالية والتركيبية من أهم القضايا التي تطرق إليها" ابن سنان الخفاجي"، ومن خلال آرائه نجد أنه لا يتفق كثيراً مع البنيوية في هذه الثنائية، وفي نفس الوقت لم يرفضها، وإنما رفض التركيب الذي أخلّ بالمعنى.

وخلاصة الحديث في هذا المبحث إنّ الاتجاه البنوي الحديث قد تجلى في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي بشكل جلي، من خلال المباحث التي تحدث عنها ابن سنان وهي نفسها مباحث لسانية حديثة أصّلت للدرس اللساني منها: ثنائية الدال والمدلول في اللسانيات البنوية، وهي عند "ابن سنان الخفاجي" اللغة والكلام، وقد عقد "ابن سنان" لهما فصلين في كتابه بشيء من الشرح والتفصيل. كما نجد العلاقة الاستبدالية والتركيبية في البنوية قد عرض لها ابن سنان الخفاجي في كتابه أيضا وهوما تجلى في التقديم والتأخير، القلب الذي لا يفسد المعنى في الكلام، الحشو بأنواعه.

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ص: 145.

[2]/ نفسه، ص: 145.

وعليه فإن هذه العلاقة عند البنويين لها جذورها في كتاب سرّ الفصاحة، وإن اختلف ابن سنان عن دي سوسير في جزئيات منها رفضه لأي تركيب يخل بالمعنى ويفسده.

المبحث الثاني:

الاتجاه التوليدي التحويلي في كتاب سرّ الفصاحة

تمهيد:

جاءت التوليدية التحويلية لتسلط الضوء على الجانب الدلالي للجملة أي "المعنى" واهتمّت بالجانب الذهني الداخلي للغة وبهذا احتل المنهج التوليدي التحويلي مكانة بارزة بين المناهج اللسانية الحديثة والمعاصرة، ويعد نعوم تشومسكي أبرز من رسم للألسنية هدفا تفسيريا محاولا إيجاد نظرية تلائم وصف اللغات الإنسانية جميعها[1].

عرّف أحمد مومن التوليد بقوله: "يدل مصطلح التوليد على الجانب الإبداعي في اللغة أي القدرة التي يمتلكها كل إنسان لتكوين وفهم عدد لا متناه من الجمل في لغته الأم بما فيها الجمل التي لم يسمعها من قبل وكل هذا يصدر عن الإنسان بطريقة طبيعية دون شعور منه بتطبيق قواعد نحوية معينة "[2] فالنحو التوليدي عند تشومسكي لا بد أن يولد الجمل النحوية " grammatical " في اللغة أي أننا باستعمال القواعد النحوية نستطيع تكوين عدد لا متناه من الجمل في اللغة.

يدلّ مصطلح التحويل على نقل ما هو موجود في العقل إلى شيء ملموس وظاهر، حيث تكمن مهمته في تحويل البنى العميقة إلى بنى متوسطة وسطحية، وبعبارة أخرى فإنّها تربط بين البنى العميقة والبنى السطحية [3]؛ ونقصد بالبنية العميقة المعنى أي الشكل الداخلي للجملة، أما البنية السطحية فنقصد بها الألفاظ أي الشكل الخارجي للجملة.

وقد وضّح ذلك أحمد مومن من خلال مخطط بسيط كالتالي:[4]

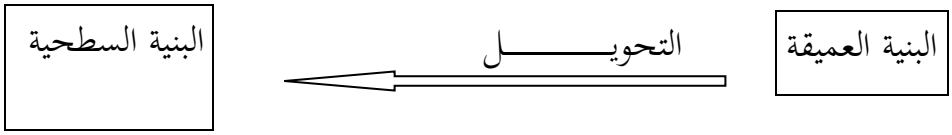

الشكل المستعمل في التواصل

[1] / رفعت كاظم السوداني، المنهج التوليدي التحويلي، ط1، دار دجلة، عمان، 2009م، ص: 26.

[2] / أحمد مومن، مرجع سابق، ص: 206.

[3] / نفسه، ص: 207.

[4] / نفسه، ص:207.

ميّز تشومسكي بين الجملة الأساسيّة التي أطلق عليها الجملة النواة " kerne sentence" والجملة المشتقة التي أطلق عليها "المحوّلة" وقد وصف تشومسكي الجملة النواة أي الأصل بأنّها بسيطة وتامة، والجملة المحوّلة أوما تسمى بالفرع فوصفها بأنّها تنقصها خاصية من خواص الجملة النواة، وتكون إما استفهاما أو أمرا أون فيا أو معطوفة أو متبعة، كما بيّن لنا كيف أن التحويل يكشف لنا بطريقة جليّة كيف تتحوّل الجملة النواة إلى عدد من الجمل المحوّلة[1].

إذن التحويلية لدى تشومسكي تتكون من أصل وفرع أي أصل الكلمة وفرعها أو أصل الجملة وفرعها وقد أتى بجملة من القواعد التحويلية التي قد تكون وجوبية " obligatory" أو جوازية "optionaly" منها: الاستفهام، النفي، الأمر المجهول، العطف، الدمج، الإتباع، الزمن.....إلخ.[2]

ومن أبرز قواعد التحويل أو عناصر النحو التوليدي نذكر:

الحذف والذي يكون في الكناية مثلا/ الإحلال /التوسيع ويقصد بذلك الإطناب أو الحشو/ الاختصار ويكون في التصغير مثلا/التحويل بالزيادة كالتضعيف /إعادة الترتيب[3].

ومنه يتجلى دور القواعد التوليدية التحويلية في التمييز بين الجمل التي تبدو متماثلة ولكنّها في الأصل مختلفة، والجمل التي تبدو مختلفة ولكنّها في الواقع متماثلة[4].

وفي الأخير ومن خلال ما قدمنا حول التوليدية التحويلية نستنتج جملة من المبادئ التي تقوم عليها هذه الأخيرة كالآتي:

الجانب الإبداعي في اللغة/ السلامة اللغوية والنحوية/ البنية العميقة والبنية السطحية أوما يعرف كذلك بالأصل والفرع/ القواعد التوليدية التحويلي.

[1] / ينظر: أحمد مومن، مرجع سابق، ص208.

[2] / نفسه، ص: 207.

[3] / نفسه، ص: 208.

[4] / ينظر: نفسه، ص: 208.

ومنه إنّ كثيرا من المنطلقات والأسس التي انبنى عليها الاتجاه التوليدي التحويلي هي في الأصل ثوابت لقواعد اللغة العربية ومن أهم الجوانب التي يلتقي فيها الاتجاه التوليدي التحويلي مع أفكار "ابن سنان الخفاجي" في كتابه سرّ الفصاحة.

المطلب الأول: الاستعارة، (البنية العميقة والسطحية):

إن جل تعريفات الاستعارة، تعنى بنقل المعنى إلى غيره، وبترك قرينة دالة على ذلك، فالاستعارة هي: «أن يكون اللفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختصر به حين وُضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية»[1]، من هذا التعريف نستنتج أن الاستعارة هي استعمال لفظ (فرعي) في غير ما وضع له في الحقيقة (الأصل).

ولقد بيّن "ابن سنان الخفاجي" قيمة الاستعارة وأهميتها في الفصاحة والبلاغة العربية ودليل ذلك أنّه أكثر من الأمثلة والشواهد فيها، بذكر العديد من الأبيات الشعرية والآيات القرآنية التي تحوي في طيّاتها الاستعارة وعرف "ابن سنان الخفاجي" الاستعارة مستعيناً بتعريف بن عيسى الرماني قائلاً: «من وضع الألفاظ في موضعها حسن الاستعارة، وقد حدها أبو الحسن علي بن عيسى الرماني فقال: «هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»[2].

إذن ابن سنان الخفاجي" يوافق الرماني في تعريفه للاستعارة، معلقاً وجاعلاً الاستعارة خروجاً عن الاستعمال في أصل اللغة.

وأول ما بدأ به "ابن سنان الخفاجي" كمثال للاستعارة هو آية قرآنية يفسر بها تعريفه وهي: قوله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ [سورة مريم، الآية:4] ؛ فيبيّن في هذه الاستعارة أصل الجملة من فرعها معتبراً لفظ الاشتعال هو للنار الذي هو الأصل، أما بالنسبة للاستعارة الواردة (اشتعال الشيب) هي فرع، حيث قال: « لأن الاشتعال

[1]/ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 30.

[2]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 113.

للنار، ولم يوضع في أصل اللّغة للشيب، فلما نقل إليه بأن المعنى اكتسبه من التشبيه ...فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة للبيان، ولابد من أن تكون أوضح من الحقيقة في الوضع للبيان، ولابد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها، لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى لأنها الأصل والاستعارة الفرع»[1]، إذن حسب كلامه لم يوضع الاشتعال في أصل اللّغة للشيب، فكان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسري حتى تحيله إلى غير حاله، فهذا يعد نقلاً عن العبارة الحقيقية، فبالتالي تعد الاستعارة فرعاً، ومن بلاغة وإعجاز هذه الآية الكريمة من بنية نحوية عميقة في تركيبها الاستعاري، فخرجت من أصل القول (امتلئ الرأس شيباً)، إلي بنية نحوية سطحية وهي (اشتعل الرأس شيباً)، ومن ثم في هذا العديد من التحويلات زادتها معنى وبلاغةً ووضوحاً.

إذ تعتبر هذه الاستعارة من أفصح الاستعارات عند ابن سنان الخفاجي، يقول: «ولها تأثير في الفصاحة ظاهرة وعلقة وكيدة، والبعيد منها يقضي باطراح الكلام، ويذهب طلاوته ورونقه»[2].

وفي آية أخرى قدّمها ابن سنان الخفاجي كمثال للاستعارة[3]، قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾[سورة الحاقة، الآية:11]، ومنه فإن أصل (طغى) علا، لكن الاستعارة فرع من الأصل، وجاءت أبلغ من الأصل، وفي مثال آخر، قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ** ﴾[سورة الحاقة، الآية: 6].وقال: «لأن حقيقة (عاتية) شديدة، والعتو أبلغ، لأنه شدة فيها تمرد»[4]؛ إذ يعتبر (شديدة) هي أصل الكلام وحقيقة، ولكن ذُكرت مكانها كلمة (عاتية) وهي فرع لكونها أبلغ وأشد معنى.

نستخلص أن "ابن سنان الخفاجي" من الذين أولوا اهتماما بالغا بالاستعارة وفطن لها، ومن تلك الأمثلة التي أوردها في الاستعارة وقام بشرحها يتبين لنا أن الاستعارة عنده أتت واضحة في بنيتها

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 114.

[2]/ نفسه، ص: 114.

[3]/ نفسه، ص: 115.

[4]/نفسه، ص :115.

السطحية وساعدت القارئ على الفهم بشكل أسرع وإيصال الفكرة بشكل أبلغ، ومنه نخلص إلى أنه يدعو إلى الوضوح والابتعاد على التكلف.

المطلب الثاني: القواعد التحويلية التوليدية:

كما ذكرنا سابقا في شرحنا للتوليدية التحويلية وأهمّ ما جاء فيها من قواعد التحويل سنحاول أن نستخرج من كتاب "سرّ الفصاحة" بعض الأمثلة التي تجلت فيها قواعد التحويل ونبدأ بما يلي:

-الحذف: لقد تناول اللغويون في القديم ظاهرة الحذف حيث يقولون: «إن الفاعل يُضمر ولا يُحذف وذلك حيثما أمكن تقديره بضمير مستتر فكأنهم يريدون بالمضمر ما لابد منه وبالمحذوف ما قد يستغنى عنه»[1]، ويقصد بهذا أن المحذوف هوما نستطيع التخلي عنه والاستغناء دون الضرورة إلى اللجوء إلى بديل ولكنّه يُقدر ويُعرّف الجرجاني الحذف قائلاً: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذ لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن»[2]، ففي هذا التعريف يبين الجرجاني الجمال الذي يضفيه الحذف في التركيب اللّغوي، والعجب أنك تجد معناه وارداً، بالرغم من عدم وجود لفظاً دالاً عليه. أما بالنسبة للحذف لدى ابن سنان الخفاجي فقد جاء ضمن فصاحة الألفاظ، حيث قسّم فصاحة الألفاظ إلى قسمين: الأول: منها ما يوجد في اللفظة الواحدة وبه ثمانية شروط ومقاييس التي هي أساس فصاحة المنظوم من الكلام خامسها كان يتضمن الحذف.

والثاني: في الألفاظ المنظومة. وهو: «أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذ، ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللّغة، ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة»[3].

---

[1] / طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت)، الإسكندرية ص: 19.

[2]/ عبد القاهر الجرجاني، مصدر سابق، ص: 146.

[3]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 71.

وبعدها ذكر ابن سنان الخفاجي كيف ترد اللفظة على عدّة أشكال ما يهمنا نحن أنّها ترد على جهة الحذف من الكلمة، وأعطى مثالا في ذلك قول رؤبة ابن العجاج:[1]

قواطناً مكة من ورق الحما.

فهنا يريد بها الحمام، لكن حذف "الميم"، لأنّ حذف الميم في غير النداء ضرورة.

وفي مثال آخر للحذف من الكلمة استشهد بقول خفاف بن نُدبة[2].

كنواح ريش حمامة نجديّةٍ ❁ ومسحت باللّثتين عصفَ الإثمدِ.

يريد كنواحي[3] فحذف هنا الياء للضرورة لأنها تحذف في التنوين وهنا مضاف غير منون، والمضاف إليه شبهه ــ ريش ــ بالتنوين فحذف الياء لأجله كما يحذفها لأجل التنوين.

وكذلك جاء الحذف في كتاب سرّ الفصاحة ورود الكلمة على الوجه الشاذ القليل، حيث قال ابن سنان الخفاجي فيه «وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل، وهو أراد اللغات فيها لشذوذه، والكثير أبداً خفيف، كما يقول النحويون في خفة الأسماء لكثرتها»[4]؛ حيث أورد ابن سنان الخفاجي العديد من الأمثلة في هذا الباب وما يهمنا هنا الأمثلة التي جاء بها في حذف الإعراب للضرورة فذكر فيه قول امرئ القيس بن حجْر[5]:

فاليوم أشربْ غير مسْتَحْقبٍ ❁ إثماً من الله ولا واغِـــــلٍ.

وفي شرح هذا البيت فصّل أكثر ابن هشام الأنصاري في كتابه" شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب" قائلاً: «فليس قوله (أشرب) مجزوماً، وإنما هو مرفوع، ولكن حذفت الضمة للضرورة أو على

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 73.

[2]/ نفسه، ص:73.

[3]/ نفسه، ص:73.

[4]/ نفسه، ص: 75.

[5]/ نفسه، ص: 78.

تنزيل (رَبُغَ) بالضم من قوله (أشرَبُ غَيْر) منزلة عَضُدٍ بالضم فإنهم قد يُجْرون المنفصل مجرى المتصل فكما يقال في عضد بالضم: عضد بالسكون، كذلك قيل في (ربْغَ) بالإسكان»[1].

إذن الحذف هنا في الحركة الإعرابية، وهي الضمة في كلمة (أشربْ) وأصبحت مجزومة، وقد وقع هنا للضرورة.

- **الإحلال**: وقد كان لهذا المصطلح العديد من المسميات لكن مدلولها واحد، وهو «إحلال عنصر جديد بدل التركيب الأساسي للجملة بحيث يكون دالاً على وروده في الذهن وذلك نحو التصديق في جملة الاستفهام لنعم أم لا، ويعبر عنه رياضياً: أ، ب، أو هو نمط من أنماط التحويل ويتمثل في أن يحلَّ عنصر آخر متضمناً معناه، مع إضافة دلالة جديدة»[2]، وفي إشارة أخرى للإحلال قال أبو البركات ابن الأنباري (577هـ): «وقد يستغني بالحرف عن الحرف في بعض الأحوال إذا كان في معناه»[3].

إذن الإحلال هو وضع عنصر بدل عنصر آخر والذي يكون أساسي ويكون هذا العنصر في حرف أو جملة أو غير ذلك. وقد ذكر ابن سنان الخفاجي في كتابه سرّ الفصاحة العديد من الأمثلة في الإحلال نذكر منها:

- **إحلال حرف مكان حرف**: ومنه بيت الشاعر: هو رجل من بني يشكر الصوت.....

لها أشاريرٌ من لحم تتمره ❁ من الثعالي ووَخزٌ من أرانيها.

يريد: من الثعالب وأرانبها[4]، نلاحظ أنّ الشاعر حذف "الباء" من كلمتي " الثعالب" وأرانبها وأبدل مكانها حرف "الياء" وذلك للضرورة الشعرية.

وفي هذا البيت «تغيير الباء وإحلال محلها حرف الياء في الثعالب والأرانب وذلك للضرورة الشعرية وإسكان الحرفين ما كان إلاَّ إضراراً لإقامة الوزن، والأصل عدم تسكينها في الوصل وكانت الياء محلاً

---

[1]/ ابن هشام الأنصاري، شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: محمد محي الدين الحميد، دار النشر للطباعة والنشر، ط1 إيران، طهران، 1381هـ، ص: 240.

[2]/ حليمة أحمد محمد عمايرة، الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دار وائل للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، عمان، 2006، ص: 238.

[3]/ كمال الدين أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الفكر، (د. ط)، (د. ب)، (د. ت)، ج1، ص: 485.

[4]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 76-77.

لهما، لأنها تسكّن في حالتي الرفع والخفض»[1]، وفي مثال آخر لابن سنان الخفاجي في الإحلال ذكر تأنيث المذكر وتذكير المؤنث ويبدأ بتأنيث المذكر حيث أعطى مثالاً فيه، وذلك في قول الشاعر[2]:

وتشرقُ بالقول الذي قد أذعته ❁ كما شرِقتْ صدر القناة من الدم.

في هذا البيت أُنثتّ كلمة (صدر) بعد أن كان من المفترض أن تُذكّر، وكذلك كلمة (شرقت) وفي كتاب شرح الشواهد الشعرية يشرح هذا البيت، «إنّ كلمة (صدر) أُنثّت من القناة، وكذلك الفعل (شرقت) أُنث وهو مسند إليه لأن المضاف يكتسب من المضاف إليه عشرة أشياء: التعريف والتنكير الاستفهام، الشرط التأنيث، التذكير، البناء، ومعنى الظرف من الزمان والمكان، ومعنى المصدر»[3].

أما بالنسبة لتذكير المؤنث فقد أتى ببيت لعامر بن جوين الطائي[4]:

فلا مزنة ودقت ودقها ❁ ولا أرض أبقل إبقالها.

فالشاهد هنا: تذكير كلمة " أبقل"، «وفي هذا البيت لا يجوز تذكير العامل إلَّا في الضرورة، وقد تجسدت فيه هذه الضرورة بذكر العامل مع وقوع فاعله أو نائبه ضميراً مستتراً يعود على المؤنث وهذا البيت حُذِف منه حرف التاء من كلمة أبقلت، لأن الأرض بمعنى المكان، فكأنه قال: ولا مكان أبقل أبقالها»[5].

يقول ابن سنان الخفاجي: «على أن ما ذكرته يختلف قبحه في بعض المواضع دون بعض على قدر التأويل فيه وحكمه».

نستنتج أنّ ابن سنان الخفاجي اعتبر الإحلال من الفصاحة والضرورات الشعرية، ولكن منه ما هو حسن، ومنه ما هو قبيح وليس في موضعه.

---

[1]/ ينظر: ابراهيم حسن ابراهيم، سيبويه والضرورة الشعرية، مطبعة حسان، ط1، شارع الجيش، القاهرة، سنة 1403هـ، 1983م ص: 268.

[2]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 78.

[3]/ ينظر: محمَّد حسن شُراب، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، ج3، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط7، 1142هـ، 2007م، ص: 80.

[4]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 79.

[5]/ ينظر: حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص: 307.

-**التوسيع**: التوسعة نمط من أنماط التحويل وهي تتمثل في جعل مجال عنصر من عناصر الجملة أكثر اتساعاً مما كان عليه قبل التحويل، ويعبر عنه رياضيا أ أ + ب=⟵ ب د أ [1].

إذن التوسيع هي تحويل عنصر من عناصر الجملة وجعله أكثر اتساعاً مما كان عليه سابقا، وتجلى التوسيع في كتاب سرّ الفصاحة في عدة أوجه، ونذكر على سبيل المثال التوسيع الذي يكون بالتكرار والتوسيع بالحشو، ونذكر لكل منهما مثال: التكرار: وذلك في بيت[2]:

لوكنتُ كتمت الحب كما ❁ كنا نكون ولكن ذاك لم يكن.

فهذا النوع من التكرار مكروه حيث يقول فيه ابن سنان: «وليس يحتاج إلى دليل على فتحه للتكرار أكثر من سماعه»[3]، وفي هذا البيت كرر الشاعر حرفا الكاف والنون والتكرار كذلك في قول أبي الطبيب:[4]

العارض الهتن ابن العرض الهتن ابــ ❁ ن العارض الهتن ابن العارض الهتن

ويقول العلوي في هذا البيت: «فهذا من باب التكرير، فمنهم من صوب هذا التكرير، ومنهم من كرهه، والأقرب أنه مجيد في مطلق التكرير كما حكيناه فيم أوردناه، فإن ما جاء به هذا التكرير دال على إغراق الممدوح في الكرم، وأما من اعتبره مكروه، ورغم أنه غير محمود فيما أتى في لفظة العارض والهتن ليستا واردتين على جهة البلاغة وذلك لقلة الاستعمال لهما»[5]، إذن التوسيع بالتكرار في البيت السابق وقع في كلمتي "العارض" و"الهتن".

---

[1]/ حليمة أحمد عمايرة، مرجع سابق، ص: 236.

[2]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص:79.

[3]/ نفسه، ص: 92.

[4]/ نفسه، ص: 96.

[5]/ ينظر: العلوي اليمني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية، (د. ط)، مصر 1222هـ، ج2، ص: 182.

أما بالنسبة للتوسيع بالحشو فقد جاء ابن سنان بعدة أمثلة من بينها نذكر بيت أبي الطيب يمدح كافوراً[1]:

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلاً ❁ قبل اكتهال أديباً قبل تأديب.

كلمة (الأستاذ) هنا وقعت حشواً، فقد أتت بعد كلمة الملك، وهي ذكر المنزلة الأدنى بعد المنزلة الأعلى، ويجب في المدح تعظيم الممدوح بمنزلة أعلى من تلك المنزلة، أي منزلة أعلى من منزلة الملك.

وهنا يكون بما يسمى البنية السطحية والبنية العميقة، فبمفهوم البنية السطحية يفهم البيت على أنه مدح أما بمفهوم البنية العميقة فيفهم على أنه ذم، وذلك على عادة المتنبي في ذمه للكافور، والذي كان يرفض وصفه بالسواد، فيكلمه المتنبي على صيغة المدح.

-**الاختصار أو الإيجاز**: ويعني بالإيجاز «أوجز في كلامه أي قصره، وكلام وجيز أي مختصر، ومعنى ذلك عند البلاغيين تهذيب الكلام بما يستحسن أو تصفية الكلام من الكدر»[2]، وفي تعريف ابن سنان الخفاجي للإيجاز يقول: «هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ»[3].أي هو الاختصار في الكلام مع الاستيفاء في المعنى، وقد قدّم ابن سنان العديد من الأمثلة في الإيجاز نذكر منها قول المخزومي[4]:

وغاب قُمير كنت أرجو طلوعه ❁ وروح رُعيان ونوَّم سُمّر

التصغير هنا وقع على كلمة (قُمير) وهو تصغير مستحسن، فتصغير قمر هنا يدل على أنه غاب عند ترويح الرعيان ونوم السهار على أنه كان قبل ذلك هلالاً.

وفي مثال آخر أتى به ابن سنان الخفاجي في قول الشاعر[5]:

وكُلُ أُناسٍ تَدْخُلُ بينهم ❁ دُوَيْهية تَصْفَرُّ منها الأنامل.

---

[1]/ ابن سنان الخفاجي، نفسه، ص: 142.

[2]/ ينظر: مختار عطية، الإيجاز في كلام العرب، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، (د. ت)، جامعة منصورة، مصر، ص: 17.

[3]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 201.

[4]/ نفسه، ص: 85.

[5]/ نفسه، ص: 85.

التصغير هنا وقع على كلمة (دويهية) يرى ابن سنان الخفاجي أنّ هذه الكلمة والتي أصلها داهية بعيدة عن الفصاحة في رأيه أنه لا يمكن الجمع بين أسلوب التصغير ودلالة التعظيم وما يستنتج هنا أن مبالغة الشاعر في وصف هذه الداهية، ما هي إلاّ إشارة إلى ذكائه.

وفي مثال آخر قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [سورة البقرة، الآية: 179]. هذه الآية رغم قصرها في المبنى إلاّ أن معناها بليغ فكلمة (القصاص) تعني (الضرب، القتل، الجرح) ومن كلمة القصاص.

وفيما يلي جدول يوضح المزيد من الأمثلة:

المثال	القاعدة	الشرح
﴿**وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾ [التكوير:18]	استعارة	لأن تنفسه هنا مستعار وحقيقته بدء انتشاره و(تنفس) أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس، حيث ذكر المشبه وهو(الصبح) وحذف المشبه به وهو(الإنسان) وترك قرينة تدل عليه هي (تنفس) وهي استعارة مكنية. **الاتجاه التوليدي التحويلي (النية العميقة)**
﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [يس:38]	استعارة	إنّ انسلاخ الشيء عن الشيء هو تبرؤ منه وكذلك انفصال النهار عن الليل والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من بيان، ذكر المشبه وهو(الليل) وحذف المشبه به وهو (الذّبيحة من غنم

		أوما شابه) وترك قرينة تدل عليه هي (نسلخ) على سبيل الاستعارة المكنية. **الاتجاه التوليدي التحويلي (البنية العميقة)**
وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع	استعارة	وهذا من أحسن الاستعارات المنية هي الموت وكما هو معلوم فإنّ المنية لا أظفار لها لتنشبها حيث جاء تشبيه المنية هنا بالحيوان المفترس الذي هو المشبه به المحذوف وترك لازمة وقرينة تدل عليه هي (أنشبت أظفارها) وهي استعارة مكنية. **الاتجاه التوليدي التحويلي (البنية العميقة)**
فأصبت حبة قلبها وطحالها	حشو	لولا الوزن لاكتفى بقوله: فأصبت حبة قلبها. **الاتجاه البنوي (العلاقة الاستبدالية والتركيبية)**
فلا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب	حشو	إنّ لفظة (الندى) هاهنا حشو قبيح أفسد المعنى، وذلك أن الدنيا لا فضل فيها للشجاعة والصبر لولا الموت لأن الشجاع إذا علم أنه يخلد فأيّ فضل لشجاعته وكذلك الصابر، أمّا

		الندى فمخالف لذلك لأن الإنسان إذا علم أنه سيموت هان عليه بذل ماله، لذلك يصح التخلي عن لفظة (الندى) في هكذا موضع دون إخلال بالمعنى. **الاتجاه البنوي (العلاقة الاستبدالية والتركيبية)**
فإن تكتموا الداء لا نخفه وإن تقصدوا الذم لا نقصد	حشو	فإنّ كلّ لفظة تقتضي ما بعدها، فهذا الكلام الذي يدل بعضه على بعض ويأخذ بعضه برقاب بعض، حتى إذا أنشدت صدر البيت علمت ما يأتي من عجزه، فالشعر الجيّد على هذا مبنيّ. **الاتجاه البنوي (العلاقة الاستبدالية والتركيبية)**
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف:82]	الإيجاز	واسأل القرية أراد بها واسأل أهل القرية. والعير: أي أصحاب العير. وهو إيضاح المعنى بأقلّ ما يمكن من اللفظ.

		حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه بحيث يقع العلم ويزول اللبس. **الاتجاه التوليدي التحويلي (التحويل قاعدة التوسيع)**
فإنّي لو لقيتك واتجهنا لكان لكلّ منكرة كفاء	الإيجاز	أي: إنّني لو واجهتك لكان عندي مكافأة لك على كلّ أمر يبدو منك أنكره، فقد أورد المعنى في لفظ قليل وبهذا وصف شعر زهير بأنّه كثير الإيجاز مع الإيضاح لمعانيه. **الاتجاه التوليدي التحويلي (التحويل قاعدة التوسيع)**
مالوا على شعب الرحال وأسندوا أيدي الطعان إلى قلوب تخفق	الإيجاز	أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة في متابعتهم الغرام والصبابة عبّر بذلك بقوله: أيدي الطعان فأتى بأخصر الألفاظ وأوجزها. **الاتجاه التوليدي التحويلي (التحويل قاعدة التوسيع)**
وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر	التكرار	هذا البيت مبني من حروف متقاربة ومكررة، ولهذا يثقل النطق بها حتى زعم بعض الناس أنّه من شعر الجن، ويختبر المتكلم بإنشاده ثلاث مرات من

		غير غلط ولا توقف وهومن وحشي الشعر. **الاتجاه التوليدي التحويلي (التحويل قاعدة التوسيع)**
ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد	التكرار	فمن شدّة حبّه لهذه المرأة لم ير تكرير اسمها عيبا، ولأنّه يجد للتلفظ باسمها حلاوة فلم ير من الاعتذار للتكرير إلّا هذا العذر. **الاتجاه التوليدي التحويلي (التحويل قاعدة التوسيع)**
سُلّت وسَلّت ثمّ سُلّ سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا	التكرار	يعد هذا البيت من قبيح التكرار عند ابن سنان حتى أنه لو لم يجده في ديوان مسلم بن الوليد الأنصاري لما صدّق أنّ مثل الوليد يقول هذا البيت القبيح المتكلف. **الاتجاه التوليدي التحويلي (التحويل قاعدة التوسيع)**
وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق	التقديم والتأخير	على المقلوب وتقديره: كيف لا يموت من لا يعشق. إن الكلام جار على طريقه، والمراد به كيف تكون المنية غير العشق؟ أي: أن الأمر الذي يقدر في النفوس أنه في أعلى مراتب الشدة هو الموت ولما

		ذقت العشق وعرفت شدّته عجبت كيف يكون هذا الأمر الصعب المتفق على شدته غير العشق. **الاتجاه البنوي (العلاقة الاستبدالية والتركيبية)**
خير راعي رعية سرّه الله هشام وخير مأوى طريد	التقديم والتأخير	أي: خير راعي رعية هشام سره الله. **الاتجاه البنوي (العلاقة الاستبدالية والتركيبية)**
لعمر أبيها لا تقول خليلتي ألا فرّ عني مالك بن أبي كعب	التقديم والتأخير	أي: لعمر أبي خليلتي. **الاتجاه البنوي (العلاقة الاستبدالية والتركيبية)**
قد كان صرم في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم	الإحلال	هذه اللفظة على هذه الصيغة بالصاد فيما هي بالسين فكان إيثاري تجنبها لذلك. **الاتجاه التوليدي التحويلي (قاعدة التوليد)**
كم من غائط من دون سلمى قليل الأنس ليس به كتيع	الإحلال	الغائط: البطن من الأرض، إلّا أنّه يستعمل الآن في الحدث على ذلك الأصل، فذكره قبيح على ما تقدم لكن عمرو معذور كعروة لأنه على ذكر عرف حدث فلعل عمرا قبله.

		الاتجاه التوليدي التحويلي (قاعدة التوليد)
سيغنيني الذي أغناك عني فلا فقر يدوم ولا غناك	الإحلال	مد المقصور حيث مد الشاعر هنا لفظ (غناك) وأصلها (غنى) **الاتجاه التوليدي التحويلي (قاعدة التوليد)**
ما إن رأيت ولا أرى في مدّتي كجواريَ يلعبن في الصحراء	الإحلال	تحريك الياء التي تقع قبلها كسرة في الرفع والجر. فإنّ هذا كلّه داخل في باب **الزيادة. الاتجاه التوليدي التحويلي (قاعدة التوليد)**

تعليق:

نلاحظ أن ابن سنان في عرضه للاستعارة تكلم بشكل عام ولم يفصل فيها، ورغم ذلك كان عرضه لها بمثابة انطلاقة للبلاغيين لدراستها والتعمق في كنهها، أما بالنسبة للحشو، فقد اعتبره ابن سنان مقبولا لكن بما يقتضيه السياق فقط؛ أي قبل ما كان حسنا، ورفض ما كان قبيحا، ولو لضرورة شعرية. أما في رؤيته للإيجاز فإنّه أعلى من شأنه وجعله مطلبا بلاغيا لا يجيده إلا حذق اللسان بليغ الفكر، أما بالنسبة للتقديم والتأخير فإن "ابن سنان" قد غضّ الطرف عن الاحتفاء بهما بل نجده أتى بشواهد لتكون هي أيضا شاهدا على أن التقديم والتأخير يفسدان المعنى والإعراب في كثير من المواضع.

وخلاصة القول:

إنّ كثيرا من المنطلقات والأسس التي أنبنى عليها الاتجاه التوليدي التحويلي هي في الأصل ثوابت لقواعد اللغة العربية ومن أهم الجوانب التي يلتقي فيها الاتجاه التوليدي التحويلي مع أفكار ابن سنان الخفاجي في كتابه سرّ الفصاحة نجد الاستعارة وهي ما يطلق عليها في الاتجاه التوليدي التحويلي (البنية العميقة والبنية السطحية)

ومنه نستخلص أن "ابن سنان الخفاجي" من الذين أولوا اهتماما بالغا بالاستعارة وفطن لها، ومن تلك الأمثلة التي أوردها في الاستعارة وقام بشرحها يتبين لنا أن الاستعارة عنده أتت واضحة في بنيتها السطحية، وساعدت القارئ على الفهم بشكل أسرع، وإيصال الفكرة بشكل أبلغ، ومنه نخلص إلى أنه يدعو إلى الوضوح والابتعاد على التكلف.

وكذا قاعدتي التوليد بما فيها (الإحلال) وقاعدة التحويل بما فيها (التكرار والإيجاز)، وبهذا يكون الاتجاه التوليدي التحويلي متأصلا في تراثنا اللغوي العربي، وهو تماما ما تجلى في كتاب سرّ الفصاحة.

المبحث الثالث:

الاتجاه التداولي في كتاب سرّ الفصاحة

تمهيد:

عرّف موريس التداولية قائلا:« تُعنى التداوليّة بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها والذي استقر في ذهنه أنّ التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وفي المكان والزمان (الآن هنا) والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئيّا خارج اللغة نفسها أي من المقام الذي يجري فيه التواصل» [1]؛ حيث ميَّز بين ثلاثة فروع "يشتمل عليها علم العلامات، هذه الفروع هي:

- علم التركيب santax: ويُعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.
- علم الدلالة sémantique: يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تحيل إليها.
- التداوليّة:pragmatique تهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها.

على أنّ التداولية لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين على يد ثلاثة من فلاسفة اللغة هم: أوستن، وسيرل، وجرايس[2].

المطلب الأول: الإشاريات في كتاب سرّ الفصاحة:

يقوم البحث التداولي على عدّة مفاهيم لدراسة الظواهر اللغوية من بينها الإشاريات وهي علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي، لأنها خالية من أي معنى في ذاتها ودورها في السياق التداولي لا يقف عند الظاهر منها بل يتجاوز إلى نمط آخر منها مستقر في بنية الخطاب العميقة عند التلفظ مما يعطيها دور تداولي في إستراتيجية الخطاب[3].

وتتجلى الإشاريات في كتاب سرّ الفصاحة من خلال:

---

[1]/ آن ربول، جاك موش لار، التداوليّة اليوم، تر: سيف الدين دافوس، محمد الشيباني، مر: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2003م، ص: 29.

[2] / محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، د.ت، 2002م، ص: 9.

[3] / ينظر: حمادي مصطفى، تداولية الإشاريات في الخطاب القرآني–مقاربة تحليلية لكشف المقاصد والأبعاد– مجلة الأثر العدد 26 / سبتمبر 2016م، ص: 64.

أولا: الإشاريات الشخصية (Personnel déficits):

ونقصد بها العناصر الإشارية التي تدل على الشخص (Person) منها ضمائر المتكلم (أنا نحن) ضمائر المخاطب (أنت، أنت، أنتما، أنتم، أنتن، تاء الخطاب)

وقد رصدنا العناصر الإشارية في الجدول أدناه:

الجملة	العنصر الإشاري
والكلام عندنا	ضمير المتكلم "نحن"
واعلم أنّ	ضمير مستتر
قلت ...	تاء المخاطب
تقول	ضمير مستتر
فعلتُ كذا وكذا....	تاء المتكلم
وكائن ترى	ضمير مستتر
صبّحتُ والطير	تاء المتكلم
عجبتُ لها أنى	تاء المتكلم
إن كنت أوردتُ	تاء المتكلم
لسنا	ضمير المتكلم "نحن"
نخالفك	كاف الخطاب
نخالف فيها	ضمير المتكلم "نحن"
ما ذهبنا إليه	ضمير المتكلم
قلنا	ضمير المتكلم
نذكر	ضمير مستتر
نقتصر	ضمير مستتر
أعني	ياء المتكلم
استجارك	كاف الخطاب
سمعتُ	تاء المتكلم

بيّنتُ	تاء المتكلم
تسمعُ	ضمير مستتر
لم أر	ضمير مستتر
نبتدئ	ضمير مستتر
أربيت	تاء المخاطب
ومن عاداك	كاف الخطاب
تحسبه	ضمير مستتر
جلّيت	تاء الخطاب
أقسمتُ	تاء المتكلم
على عبدك	كاف الخطاب
ليزدك وجدا	كاف الخطاب
وكذاك لم	كاف الخطاب
أردتُ	تاء المتكلم
وطرتُ بمنصلي	تاء المتكلم
ولاك اسقني	كاف الخطاب
كان ماؤك	كاف الخطاب
تنال	ضمير مستتر
الذي أغناك	كاف الخطاب
أشرب	ضمير مستتر
رأيتُ	تاء المتكلم
أرى	ضمير مستتر
أعزز	ضمير مستتر
أراك	كاف الخطاب
من جانبيك	كاف الخطاب
فعجلت	تاء المخاطب

فيم لديك	كاف الخطاب
إذا بلغتك	كاف الخطاب
ابتعثتُ	ضمير المتكلم
رأيت	تاء المخاطب
أجبتُ	ضمير المتكلم
فبتّ كأني	ضمير المتكلم
ظللتُ	ضمير المتكلم
بأن ترضى	ضمير مستتر
لك الخير	كاف الخطاب
فقلقلتُ	ضمير المتكلم
وجدّك بشر	كاف الخطاب
صددت	تاء المخاطب
فأطولت	تاء المخاطب
رفعتُ	ضمير المتكلم

ثانيا: الإشاريات الزمانية (Temporal Déficits):

نقصد بها الإشاريات التي تدل على الزمن داخل السياق، وقد يشير إلى الزمن الكوني الذي يخص السنين، والأشهر، والأسابيع، والأيام، والساعات، والدقائق، والثواني، كما أنه قد يقصد الزمن النحوي الذي نحكم عليه من خلال الكلمة في سياقها التركيبي، لهذا سنركز على الزمن النحوي لنستطيع تحديد الدلالة المقصودة.

ويمكننا تحديد الإشاريات الزمانية في كتاب سرّ الفصاحة من خلال الأمثلة الآتية:

العنصر الإشاري	**زمنه**
يقال	مضارع
يختص	مضارع
أراد	ماض

حكى	ماض
انتشر	ماض
يدرك	مضارع
يتعلق	مضارع
علمنا	ماض
تحتاج	مضارع
نبين	مضارع
يدل	مضارع
يلتبسا	مضارع
يتناول	مضارع
يرجع	مضارع
قلنا	ماض
اعتقد	ماض
ذهب	ماض
بيّنوا	ماض
يسمى	مضارع
ينقضي	مضارع
يجري	مضارع
يلزم	مضارع
قررت	ماض
يمنع	مضارع
أنشد	ماض
يرونه	مضارع
يؤثر	مضارع
تدل	مضارع

ذكرناه	ماض
يقبح	مضارع
اتفق	ماض
أفسد	ماض
يمدح	مضارع
يجعل	مضارع
يعبّر	مضارع
اقتصر	ماض
تقرأ	مضارع
يحسن	مضارع
استدرك	ماض

التعليق:

استعمل ابن سنان أفعالا في زمن المضي وهذا ليستحضر كل عنصر بالشرح ويعطيه حقّه مؤرّخا له من الماضي إلى زمن المتكلم وهو الحاضر (نقصد حاضره هو) إلى زمن المستقبل، كما نجده وظّف أفعالا جاءت دالة على الحاضر والمستقبل فصيغة (يفعل) لها ازدواج زمني وهوما نقصد به الزمن النحوي.

ثالثا: الإشاريات المكانية (Spatial déficits):

الإشاريات المكانية نقصد بها معرفة مكان ووقت التكلم لكن لا يمكن فهمها إلا من خلال السياق الذي جاءت فيه، وتمثلت الإشاريات المكانية في كتاب سرّ الفصاحة من خلال الأمثلة الآتية في الجدول أدناه:

العنصر الإشاري	**نوعه**
تلك– ذلك – هذا	اسم إشارة
هنا	اسم إشارة للمكان القريب
هناك	اسم إشارة للمكان البعيد

فوق – تحت	ظرف مكان

تعليق:

استعمال ابن سنان للإشاريات المكانية باعتبارها عنصرا من عناصر استدعاء الخطاب حيث يشارك المتلقي في عملية الإدراك، فهي تواصلية في المقام الأول بين المتكلم والمتلقي.

رابعا: الإشاريات الخطابية (Discoures déficits):

نقصد بالإشاريات الخطابية العبارات الواردة في النص والتي تدل على حالة المتكلم باستعماله ألفاظا توحي بذلك داخل المقام، ونجدها في كتاب سرّ الفصاحة بشكل واضح كما يلي:

- "ولذلك كان المصيب منهم المحصّل من يقول هكذا قالت العرب من غير زيادة على ذلك..."[1]، هنا نلاحظ أن ابن سنان رجّح رأي على آخر واعتبر الرأي الآنف ذكره هو الصحيح الذي يطمئن هوله.
- "لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل، وأن يقذفوه بالتعسف والظلم وبالخرق والعنف..."[2]، هنا نجد أن ابن سنان يستدرك وذلك ليجذب ذهن القارئ وتركيزه.

المطلب الثاني: الأفعال الكلامية في كتاب سرّ الفصاحة:

هي كلُّ ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي اِنجازي تأثيري. وفضلاً عن ذلك يُعدُ نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعالاً قولية لتحقيق أغراض إنجازيه: "كالطلب، الأمر الوعد والوعيد" وغايات تأثيرية تخُص ردود فعل المتلقي: "كالرفض والقبول"[3]، ومن خلال هذا التعريف نعرج لاستخراج الأفعال الكلامية التي اشتمل عليها كتابنا "سرّ الفصاحة" كما يلي:

أولا: الأفعال الإخبارية: أ–الأفعال الإخبارية المطابقة للواقع : الأفعال الإخبارية المطابقة للواقع هي كل جملة احتوت أخبارا حقيقية صادقة طابقت الواقع تماما ، ونقصد بالمطابقة هنا هو كلّ ما

[1] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 33.

[2] / نفسه، ص: 123.

[3]/ مسعود صحراوي، التداوليّة عند العلماء العرب دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص: 40.

أورده ابن سنان الخفاجي في كتابه "سرّ الفصاحة" من أقوال وحوادث وقصص نذكر بعضا من الأمثلة على ذلك: نجده يقول:« إنّ القرآن ليس يقبح بوجه من الوجوه، هو أن ما فعله تعالى وأنزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه صفته »[1]، فهذه حقيقة إخبارية صادقة جدا والكل يؤمن بها إيمانا جازما موجهة من ابن سنان لوصف ما هو في الواقع ، فقد ارتبطت الأفعال الكلامية (يقبح، فعله، أنزله) بحقيقة إخبارية مفادها أنّ (القرآن منزّه ومقدّس عن كل قبح) وهذه الحقيقة وصلت لذهن القارئ عن طريق التأكيد (إنّ ، أنّ) وبهذا فقد أدى الفعل الكلامي الإخباري المطابقة بين الألفاظ والواقع ، فابن سنان هنا يريد إفادة المستمع بأن المتكلم عالم بهذه الحقيقة ويريد تأكيدها.

وورد أيضا في قوله:« وأما الوفاء فمن دينهم الذي كانوا يرونه لازما، ومذهبهم الذي كانوا يعتقدونه حتما حتى صار من تمسّك بجوارهم أو تعلّق ببعض أطنابهم تبذل النفوس دونه، وتراق الدماء في المنع منه...»[2] ،جاءت الأفعال الكلامية (يرونه، كانوا، يعتقدونه، تمسك ، تعلّق تبذل، تراق) في سياق الإخبار حيث إن المتكلم كان على وعي تام بمطابقة كلامه للواقع فجوهر الصدق هنا نابع من حقيقة وجودية مُعاشة ،وهوما جاءت به قصص الأولين في الوفاء مثلا: حرب البسوس السموأل ورضاه بقتل ابنه دون الدروع التي كانت وديعة عنده، وغيرها من الأخبار الكثير والكثير في هذا الضرب. كما أنّها أُسندت إلى ضمير الغائب (هم)، وكأنّ ابن سنان أراد أن يُفهم المتلقي بأنّ هذه الصفة، والتي هي الوفاء كانت عامة عند جميع العرب، لذلك استعمل ضمير الجمع.

واستعمل شاهدا شعريا أيضا فيه الأفعال الإخبارية المطابقة تماما للواقع وهو:

سيغنيني الذي أغناك عني ❁ فلا فقر يدوم ولا غناك

هذا البيت جاءت أفعاله الإخبارية مطابقة للواقع، فالذي يغني هو الله وحده الذي أغنى الغير، فلا فقري أنا يدوم ولا غناك أنت دائم، فالحياة فيها متغيرات فقير اليوم قد يصبح غني الغد، وغني اليوم هو فقير الغد، وهذا ما نشهده تماما في الحياة الواقعية فكان الشاهد هذا خير دليل على ذلك.

[1] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص:41.

[2] / نفسه، ص: 47.

ب–الأفعال الإخبارية غير المطابقة للواقع: عرض ابن سنان لكثير من الأفعال الكلامية غير المطابقة للواقع في كتابه سرّ الفصاحة، لأنّها حملت بعدا تداوليا شكّل الأثر الموجود من الغرض الدلالي، ومن جملة الأمثلة التي لم تطابق إخباريتها الواقع نجد: [1]

ولولا دموعي كتمت الهوى ❁ ولولا الهوى لم تكن لي دموع

ورد الفعل الكلامي (كتمتُ ، تكن) في سياق الإخبار المؤدي إلى وصف حالته والتي يخبرنا عنها بأنّه لولا دموعه ما ظهر عليه الهوى بمعنى أنّ تلك الدموع كانت سببا في كشف أمره، وكأنّه يقول: (أعلمكم أن دموعي سبب في عدم كتماني للهوى)، وكذلك في قوله في العجُز فهو يلقي اللوم على الهوى فقط في نزول دموعه أي لولا الهوى ما نزلت لي دمعة واحدة ،وهذا غير مطابق للواقع إطلاقا لأنّه مبني على مغالطة من الشاعر يريد أن يستتر خلفها، وهي أن دموعه لم ولن تنزل إلا بسبب الهوى لكن في الواقع لا يستقيم هذا الكلام ، فالإنسان تنزل دموعه لعدة أسباب أخرى مثلا البكاء عند موت شخص عزيز ،أو عند المرض، أو عند الندم على فعل شيء، أوقد يبكي بسبب فرحة ، وغيرها من أسباب البكاء الكثيرة جدا ،لذلك جاء الفعل الكلامي هنا غير مطابق للواقع.

ج–الأخبار المبالغ في صدقها: استشهد ابن سنان ببيت شعري لامرئ القيس في قوله: [2]

أغرّك مني أنّ حبّك قاتلي ❁ وأنّك مهما تأمري القلب يفعل

هذا البيت من الأخبار المبالغ في صدقها، فامرؤ القيس هنا بالغ في وصف حبه لمحبوبته، وأنّه قد يصل به الأمر لحد الموت وهذا ما لا يكون إلّا نادرا جدا فليس كلّ من يحب يصل به الأمر إلى الموت رغم صحة وصفه إلّا أنّه كساه بثوب من المبالغة الشديدة.

ثانيا: الأفعال التوجيهية: أ–أفعال توجيهية بصيغة المضارع:– النهي: تمثل في الفعل المضارع المقرون بلا الناهية (من متكلم إلى مخاطب) قد يكتفي النهي بغرض واحد وقد يخرج إلى أغراض دلالية أخرى، وسنقدم أمثلة عن أغراض النهي الموجودة في كتاب سرّ الفصاحة وهي كالآتي:

[1] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 100.

[2] / نفسه، ص: 250.

لا تحلفنّ بما حوته صحائف ❁ لهمو وإن وُجدت بخط دارس

ورد الفعل الكلامي التوجيهي في سياق النهي (لا تحلفنّ)، فقد ارتبط فعل الأمر بالكف عن الحلف فالمتكلم هنا في موقف يسمح له بتوجيه طلب في صيغة أمر وفي المقابل على المتلقي الاستجابة والتنفيذ، فتحقيق هذا الطلب لا يكون إلا في المستقبل وهكذا يتحقق الفعل الكلامي التوجيهي.

نجد أيضا في قول الشاعر قطري بن فجاءة المازني: [1]

لا يركنن أحد إلى الإحجام ❁ يوم الوغى متخوّفا لحمـــــام

جاء الفعل الكلامي التوجيهي في صيغة النهي (لا يركنن) يريد به الشاعر قول (لا تجعل الخوف يثنيك عن خوض مضمار الحرب) وهو شحذ للهمم واستنهاض للأمم وبذلك خرج غرض النهي هنا إلى النصح والإرشاد بين (المتكلم والمتلقي).

-الأمر: قال الشاعر: [2]

فاذهبي ما إليك أدركني الحلم ❁ عداني عن هيجكم أشغالي

ورد الفعل الكلامي التوجيهي في سياق الأمر (فاذهبي) إذ المتكلم يلزمها بالذهاب فهو هنا لن ينال منه شيئا سوى إفادة المتلقي وباستجابة المتلقي يكون قد تحقق الفعل الكلامي التوجيهي.

يقول أبو عبادة: [3]

فأحجم لما لم يجد فيك مطعما ❁ وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

جاء الفعل الكلامي التوجيهي في صيغة الأمر (فأحجم) وكذا في الفعل (أقدم) جاء الأمر هنا لإفادة المتلقي وتصوير الممدوح بأروع صورة، استعمل الأمر لإثارة المتلقي وإصابته بالدهشة من الموقف في مدح الفتح بن خاقان في وصف مبارزته للأسد فتحقق بذلك الفعل الكلامي التوجيهي.

[1] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 111.

[2] / نفسه، ص:150.

[3] / نفسه، ص: 164.

المطلب الثالث: الاستلزام الحواري في كتاب سرّ الفصاحة:

الاستلزام الحواري مفهوم تداولي يحمل مسميات مختلفة منها: المعنى الضمني، والمعنى المستلزم، المعنى المقصود، المعنى الباطني، والمعنى الثاني؛ ترجع بداياته للمحاضرات التي دعا الفيلسوف الأمريكي بول غرايس لإلقائها في جامعة هارفارد سنة1967، إذن يعد غرايس أول المنظرين لهذا المفهوم في الدَّرس التداولي الحديث من خلال مؤلفه "المنطق والمحادثة". وتتمثل الفكرة الجوهرية عنده في أنَّ المتخاطبين عندما يتحاورون، إنَّما يقبلون ويتَّبعون عدداً معيناً من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل[1].

يرى غرايس أن للعبارة اللغوية معنيان[2]:

- **معاني صريحة:** وهي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها، وتشمل:

المحتوى القضوي: وهو مجموع مفردات الجملة مضمومة إلى بعضها في علاقة إسناد.

القوة الإنجازية الحرفية: وهي القوة الدلالية المؤشر لها بأدوات تصبغ الجملة بصبغة أسلوبية ما: كالاستفهام والأمر والنهي...الخ.

- **معاني ضمنية:** وهي التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، وتشمل:

-معاني عرفية: وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة، مثل: معنى الاقتضاء.

-معاني حوارية: وهي التي تتولد طبقاً للمقامات التي تنجز فيها الجملة، مثل: الدلالة الاستلزامية.

يرى غرايس بأن الاستلزام نوعان: استلام عرفي، واستلزام حواري؛ "فالاستلزام العرفي قائم على ما تعارف (تواضع) عليه أصحاب اللُّغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب. ومن ذلك مثلاً في الانجليزية "but"، ونظيرتها في اللغة العربية "لكن"؛ فهي في اللُّغتين تستلزم دائماً أن ما يكون بعدها مخالفاً لما يتوقعه السامع مثل:

[1]- ينظر: فيليب بلانتيه، التداوليّة من أوستن إلى فوغمان، ص: 84، ومحمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 32.

[2]- مسعود صحراوي، مرجع سابق، ص: 34.

my friend is poor, but honest، ومثل زيد غني لكنه بخيل. وأما الاستلزام الحواري فهو متغير دائماً بتغير السياقات التي يرد فيها"[1].

ويتجلّى الاستلزام الحواري في كتاب سرّ الفصاحة من خلال ما يلي:

ورد في مثل قوله: «ألست تقول لمن نطق وأظهر كلمة واحدة قد تكلم، وإن لم يكن ما ذكره جملة؟ قال: أقول تكلم ولا أقول قال كلاما" [2] ، ورد الجواب مناسبا للسؤال وفق مبدأ التعاون وقد تحققت قاعدة الكم في الردّ دون زيادة ولا نقصان، إذ نجد أنّ المتلقي استعمل القدر المطلوب من الكلمات بما يتوافق مع السؤال، وكذا تحققت قاعدة الكيفية في دقة الإجابة ووضوحها، كما تحقق مبدأ الطريقة لأنّه لم يأت أكثر من سؤال في وقت واحد بل جاءت الإجابة واضحة صريحة في القول.

فيما يخص انتهاك قواعد مبدأ التعاون:

أ–مبدأ الكم: في قوله: «كيف يمكن أن يناخ جمل على عين إنسان؟ "[3] ، أجاب: «وما أحسب أنّ العلّة فيما ذكرته عن النقل إلى غير اللغة العربية منها وتباين ذلك، إلا أنّ لغتنا فيها من الاستعارات والألفاظ الحسنة الموضوعة ما ليس مثله في غيرها من اللغات... » [4]، السؤال هنا كان محددا لكنّ الجواب انتهك مبدأ الكم وجاء بأكثر من المطلوب.

ورد أيضا في قوله: " الصمت أفضل أم الكلام؟" [5]، فقال:« أخزى الله المساكتة، فما أفسدها للسان وأجلبها للحصر، والله إنّ المماراة على ما فيها لأقل ضررا من السكتة التي تورث أدواء أيسرها العيُّ »[6]، فالسؤال كان محددا لكنّ الجواب انتهك مبدأ الكم وجاء بأكثر مما هو المطلوب (أجلبها للحصر) وأضاف (والله إنّ المماراة على ما فيها لأقل ضررا من السكتة التي تورث أدواء أيسرها العيُّ) المتكلم سأل سؤالا واحدا، والمتلقي أجاب بثلاث إجابات وهو انتهاك صريح لمبدأ الكم.

---

[1]/ محمود أحمد نحلة، مرجع سابق، ص: 33.

[2] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص: 30.

[3] / نفسه، ص: 45.

[4] / نفسه، ص:45.

[5] / نفسه، ص:57.

[6] / نفسه، ص: 57.

ب–مبدأ الكيف: قالوا لما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر احتقره لما رأى من دمامته وقال: تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه، فقال: أبيت اللعن، إنّ الرجال لا تكال بالقفزان وليست تُستقى فيها وإنّما المرء بأصاغريه : قلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ،وإن نطق نطق بلسان[1]، هنا انتهكت قاعدة الكيف التي تقتضي ألا تقول ما تعلم كذبه، فالنعمان قال قولا لكن في حقيقته غير ذلك ، فبعد سماعه لحكمة المعيدي وحسن كلامه تراجع عن قوله السابق الذي جاء مخالفا للأخلاق ، لكن بذكاء ودهاء وحنكة المعيدي رد ردا مفحما على النعمان بكلام كساه بالأدب والموعظة، ليجعل النعمان يحس بخطئه تجاهه دون أن يقلب الموقف ضده فيقع فيما لا تحمد عقباه فأوصل ما يريد قوله بطريقة غير مباشرة.

المطلب الرابع: الحجاج:

تختلف تعريفات الحجاج من زاوية إلى أخرى، وهذا راجع إلى تعدد مظاهره وتنوعها؛ حيث يميز ديكرو بين معنيين للفظ الحِجاج؛ المعنى العادي، والمعنى الفني[2].

أ– المعنى العادي: ويعني به طريقة عرض الحجج وتقديمها ويستهدف التأثير في السامع فيكون بذلك الخطاب ناجعاً فعالاً، وهذا معيار أوَّل لتحقيق السِّمة الحجاجية.

ب– المعنى الفني: فيدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان، ضمن المحتويات الدَّلالية.

وتتجلى مظاهر الحجاج عند ابن سنان الخفاجي من خلال كتابه "سرّ الفصاحة"، في تعريفه للكلام حيث يقول:« والكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها، على ما بيّناه من أننا لا نذكر إلا حروف اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، وحده ما انتظم من حرفين فصاعدا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن تصح عنه أومن قبيله الإفادة ...»[3]؛ فابن سنان أعطى للكلام مفهوماً تجاوز به الوظيفة التواصلية للغة إلى الاهتمام بالبعد الحجاجي، وعليه فمفهوم الكلام تتنازعه

[1] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق ، ص: 56.

[2]/ صابر الحباشة، التَّداولية والحجاج مداخل نصوص، صفحات للدراسات والنشر، سوريا، ط1، 2008، ص: 21.

[3]/ ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص28.

وظيفتان: الأولى إفهامية ذات فائدة ، والثانية حجاجية إقناعية ، ففي الوظيفة الأولى نجد ابن سنان يتحدث عن طبيعة الكلام ومكانته، بينما يتحدث في الوظيفة الثانية عن أحوال المخاطِبين.

ومن العناصر الحجاجية التي اهتم بها ابن سنان؛ "شروط الكلام" وما تحتويه من أحوال المتكلم ففصَّل القول فيما يجب على المتكلم التحلي به من صفات نطقية (في حديثه عن الأخرس مثلا) ولم يختص في حديثه عن ذِكر مميزات المتكلم فقط كما لم يغفل ما يتعلق بأخلاق المتكلم وسلوكه حيث أفرد آداباً للكلام وما يجب على المتكلم الالتزام بها.

كما اعتبر الكلام على ضربين: مهمل: هو الذي لم يوضع في اللغة التي قيل له: مهمل لشيء من المعاني والفوائد. المستعمل: هو الموضوع لمعنى أو فائدة، وهو على قسمين: أحدهما: ما له معنى صحيح، وإن كان لا يفيد فيما سُمي به كنحو الألقاب مثل: زيد، وعمرو. ثانيهما: هو المفيد، وهو قسمين حقيقة ومجاز[1].

كما اهتم ابن سنان بالعلامة السيميائية والدور الذي تلعبه في الإقناع، بحيث يظهر الحجَّاج عنده من خلال تفريقه بين البلاغة والفصاحة حيث يقول: "الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ،وإن قيل فيها فصيحة ،وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغا كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه"[2]، فمن خلال هذا التفريق يتضح لنا الهدف الذي يرمي إليه ألا وهو الإقناع، ففي كل باب أو فصل يبدأ ابن سنان كلامه بلفظة "اعلم" كأنه بهذه اللفظة يخاطب ويقنع القارئ أو السامع، كذلك المتأمل في كتاب "سرّ الفصاحة" استشهد بالقرآن الكريم ،وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقوال العلماء ،وأبيات الشعر، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على الخطاب الإقناعي الموجه للقارئ.

[1] / ينظر: ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص38.

[2] / نفسه، ص53.

- **آليات الحجاج اللُّغوي في سرّ الفصاحة:** سنقوم باستخراج بعض آليات الحجَّاج اللُّغويَّة مثل السلالم الحجاجية، الروابط والعوامل الحجاجية، والأفعال اللُّغوية، محاولين الكشف عن كيفية توظيف ابن سنان لهذه الآليات في كتابه سرّ الفصاحة.

- **السلم الحجاجي:** هو علاقة ترتيبية للحجج، بمعنى آخر أنه يرتب الحجج من أضعف حجة إلى أقوى حجة[1]، ومن أمثلة ابن سنان في هذا الشأن، وضعه لثمانية شروط متسلسلة لفصاحة اللفظة وهي:

الأول: أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج.

الثاني: أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها.

الثالث: أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية.

الرابع: أن تكون الكلمة غير ساقطة عاميّة.

الخامس: أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذّة.

السادس: ألا تكون الكلمة قد عُبّر بها عن شيء آخر يكره ذكره.

السابع: أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف.

الثامن: أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أم ما يجري مجرى ذلك[2]، فمن خلال هذا المثال يتضح لنا أن ابن سنان جعل لفصاحة الألفاظ ثماني درجات بحيث ذكر ثمانية شروط مرتبة من أصغر حجَّة إلى أقوى حجَّة، لأننا نحكم على فصاحة اللفظة بدءا من تآلف حروف اللفظة الواحدة وصولا إلى ما تؤديه تلك اللفظة من بيان وحسن إفهام.

إذن في هذا المثال تتدرج الحجج لكن النتيجة واحدة فلا تتحقق فصاحة اللفظة إلا إذا تحققت هذه الدرجات.

[1]/ ينظر: أبوبكر العزاوي، اللغة والحِجَّاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص: 20.

[2] / ينظر: ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص58 إلى 84.

- **الروابط الحجاجية:** " فالروابط تربط بين قولين، أو حجتين على الأصح، وتسند لكل قول دوراً محدداً داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة"[1]،وهي المؤشر الأساسي والبارز، وهي الدليل القاطع على أن الحجَّاج مؤشر له في بنية اللغة نفسها ومن هذه الروابط ما يلي: بل، لكن، إذن لاسيما، حتى، لأن، بما أن، إذ، إذا، الواو، الفاء، اللام، كي...الخ[2]، كما قد ميَّز أبوبكر العزاوي بين أنماط من الروابط الحجاجية[3].

أ- الروابط المدرجة للحجج: (حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأن...).

- الروابط المدرجة للنتائج:(إذن، لهذا، وبالتالي...).

ب-الروابط التي تدرج حججًاً قوية: (حتى، بل، لكن، لاسيما...).

- الروابط التي تدرج حججًاً ضعيفة.

ج- روابط التعارض الحجَّاجي: (بل، لكن، مع ذلك...).

- روابط التساوق الحجَّاجي: (حتى، لاسيما...).

-الرابط الحجَّاجي "لأن": يقول ابن سنان:" **لأن** بعض السنين سنة، ويقال: رجل صائت أي شديد الصوت..."[4]، ويقول أيضا: "وسميت الحروف حروفا **لأن** الحروف حد منقطع الصوت..."[5]، فمن خلال هذين القولين يتضح لنا الرابط **"لأن"** فهو؛ من الروابط المدرجة للحجَّج، وكذلك هو واحدٌ من أدوات التفسير والبرهنة، فقد استعمله ابن سنان للربط بين النتيجة والحُجَّة، وجاءت الحجج بعده لتعلل النتيجة، وفيما يلي توضيح لذلك:

النتيجة: الحروف حد منقطع الصوت.

الرابط: **"لأن"**.

---

[1]/ أبوبكر العزاوي، مرجع سابق، ص: 27.

[2]/ نفسه، ص: 55.

[3]/ نفسه، ص: 30.

[4] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص14.

[5] / نفسه، ص20.

الحجَّة: سبب تسمية الحروف حروفا.

-الرابط الحجاجي "حتى": وهومن الروابط المدرجة للحجَّج يربط بين النتيجة والحجَّة ويعلل النتيجة وفيما يلي أمثلة توضح ذلك. يقول ابن سنان: «وإن كانت توقيفا من الله تعالى لهم، ومنّة منّ بها عليهم، فلم يكن بدّ لهم من العناية بشأنهم، والتشييد من ذكرهم، **حتى** ركّبهم على حميد الخلال وطبعهم على جميل الأخلاق..."[1]، هنا يتبيّن لنا أنّ النتيجة هي: إن كانت اللغة العربية تواضعا فهي شيء خليق بالشرف وإن كانت توقيفا من الله فهي منّة منّ بها عليهم.

الرابط الحجاجي: **"حتى"**

الحجج: لم تنتج أذهانهم الصقيلة وخواطرهم العجيبة إلا شيئا خليقا بالشرف وأمرا جديرا بالتقدم.

-الرابط الحجاجي "لكن": يقول ابن سنان: «وفيهم من بعد كتاب الله خير الكتب ورسوله سيد الرسل ودينه ناسخ الأديان وفي جميع ما ذكرناه من أشعارهم ما يدل على صحته، **لكن** المختار منه يأتي في الكلام على الفصاحة...[2] »، وفي هذا المثال نجد **"لكن"** تعمل تعارضا حجاجيا بين ما يسبقها وما يتلوها من حجج.

-الرابط الحجاجي "لهذا": يقول ابن سنان: "ولهذا كله اعتمد الحذاق من الشعراء على اختيار المنازل والنساء في الغزل وتجنبوا ما لا يحسن لفظه..."[3] ، فالرابط الحجاجي "لهذا" قدم لنا نتيجة وحوصلة لما سبق من حجج، فبعد الكلام والحجج جاءت النتيجة بعد الرابط "لهذا".

وقد استعمل ابن سنان روابط أخرى "كالفاء"، و"الواو"، و"اللام" وهذا دالٌ على أن الحِجاج يغلب على طبيعة النصوص في كتابه سرّ الفصاحة.

[1] / ابن سنان الخفاجي، مصدر سابق، ص46.

[2] / نفسه، ص50.

[3] / نفسه، ص63.

- **العوامل الحجاجية:** فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حُجَّة ونتيجة أوبين مجموعة حجج) لكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحِجاجية التي تكون لقول ما. وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل ربما، تقريبا، كاد، قليلاً، كثيرا ما، إلاَّ، وجلّ أدوات القصر[1].

ومن العوامل الحِجاجية التي استعملها ابن سنان في كتابه سرّ الفصاحة نجد:

يقول: "ومحال أن يضاف الشيء إلى نفسه **إلّا** أن أبا العباس المبرّد ذهب في ذلك إلى أن المعجم بمنزلة الاعجام كما تقول أدخلته مدخلا أي إدخالا..."[2] ، وقوله أيضاً: "كما يقال: أشكيته إذا أزلت **ما** يشكوه لأن هذه اللفظة في كلام العرب للإبهام والخفاء"[3] ، ففي هذين القولين، استخدم ابن سنان العاملان الحِجاجيان "إلاَّ"، و "ما"، فهما يخدمان النتيجة التي تخدمها الحُجَّة.

خلاصة القول:

من خلال هذه الدراسة وقفنا على بعض المباحث التداولية في كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي منها:

تطرقه للإشاريات وهي علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي منها: الإشاريات الشخصية، الإشاريات الزمانية، الإشاريات المكانية.

عالج كذلك الأفعال الكلامية والتي من خلالها نكشف ردود فعل المتلقي منها: الأفعال الإخبارية المطابقة للواقع، الأفعال الإخبارية غير المطابقة للواقع، الأخبار المبالغ في صدقها، ثم الأفعال التوجيهية منها ما هو بصيغة المضارع ومنها ما هو بصيغة الأمر.

يلي هذا الاستلزام الحواري وهو المعنى الضمني أو المعنى الثاني له عدة مسميات، ومن قواعده مبدأ التعاون (انتهاك قاعدة الكم، وقاعدة الكيف).

كما كان للحجاج حظوة في كتاب سرّ الفصاحة ومن مظاهره عند ابن سنان آليات الحجاج اللغوي من ضمنها: السلم الحجاجي، الروابط الحجاجية، العوامل الحجاجية.

---

[1]- أبوبكر العزاوي، مرجع سابق، ص: 27.

[2] / ابن سنان الخفاجي، نفسه، ص22.

[3] / نفسه، ص23.

خاتـــــمـــة

وبعد دراستنا لكتاب "سرّ الفصاحة" والاتجاهات اللسانية الواردة فيه ينبغي ذكر ما توصلنا إليه من نتائج وملاحظات فيما يلي:

- يعد كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي من أهم المصادر التراثية العربية التي تضمنت مباحث لسانية جدّ هامة.
- لم يحظ كتاب سرّ الفصاحة بقدر كاف من الدراسة في ظل اللسانيات الحديثة فرغم غزارة مادته العلمية وثرائها إلا أنّه لم يسلط عليه الضوء مثل بعض المصادر التراثية الأخرى.
- ابن سنان لم يفرّق بين الأصوات والكتابة، وهو عكس ما ذهبت إليه البنوية التي أعطت الأهمية للتلفظ على حساب الكتابة (الحروف).
- اعتبر ابن سنان العلامة اللسانية متواجدة في النفس وفي فهم المتلقي والألفاظ أي أنّ الألفاظ تحمل الدلالة التي يقصدها المتكلم وفهم المتلقي هو محور تلك العلامة.
- اختلاف تصور ابن سنان عن تصور دي سوسير في شأن العلامة اللسانية فهذا الأخير أقصى العالم الخارجي الذي تشير إليه العلامة اللسانية، في حين أن ابن سنان أعطى الأهمية للعالم الخارجي.
- من أهم القضايا التي عالجها ابن سنان في كتابه أيضا الثنائية الاستبدالية والتركيبية غير أنّه رفض كلّ ما يخل بالمعنى.
- اعتنى ابن سنان بالاستعارة اعتناء كبيرا في كتابه حيث اعتبرها أساسا في فهم البنية السطحية للجملة وهذا ما تجلى في التوليدية التحويلية عند تشوسكي.
- ولعل أهم شيء توصلنا إليه في دراستنا هذه هو أنَّ الاتجاهات اللسانية ليست وليدة العصر الحديث، بل هي متأصلة وراسخة في التراث العربي لدى كثير من العلماء، من بلاغيين، ونحويين وأصوليين.
- كتاب سرّ الفصاحة غزير بمبحث تداولي هو الإشاريات منها الإشاريات الشخصية الزمانية، المكانية.

- نظرية أفعال الكلام لها حظوة من قبل الباحثين العرب والغرب على حد سواء كما لها جذور متأصلة في التراث العربي وهذا الذي كشفته دراستنا هذه.

وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على نبيّه الكريم وصحابته الغرّ الميامين.

قائمـــــــة

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم برواية حفص عن نافع.

ثانيا: المصادر والمراجع:

1. ابراهيم حسن ابراهيم، سيبويه والضرورة الشعرية، مطبعة حسان، ط1، شارع الجيش القاهرة، سنة 1403هـ، 1983م.
2. أبوبكر العزاوي، اللغة والحِجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006.
3. ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، تح: داود غطاشة شوابكة، دار الفكر، ط1 عمان (2006م/ 1427هـ).
4. س الخفاجي، سرّ الفصاحة، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، د ط، 1372هـ-1952م.
5. م، أبو الفضل جمال الدين محمَّد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
6. هـ الأنصاري، شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: محمد محي الدين الحميد، دار النشر للطباعة والنشر، ط1، إيران، طهران، 1381هـ.
7. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط5، د.ت.
8. أحمد ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تح: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، ط1، بيروت لبنان، 1414هـ- 1993م.
9. أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية للنشر والتوزيع، ط 3 بن عكنون- الجزائر 2007م
10. آن روبول، جاك موشلار، التداوليّة اليوم، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني مر: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2003م.
11. بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة أنجلوا لمصرية للطباعة والنشر، ط2، مطبعة الرسالة 1377هـ-1958م.

12. بزة عبد الرحمان مصباح عبد الرحمان، البنيوية اللغوية عند فارديناند دي سوسير، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته، العدد 14ديسمبر.

13. ز نصر الدين، دروس ومحاضرات في اللسانيات العامة، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط 1، الأبيار- الجزائر، (1432هـ -2011 م).

14. بوحوش رابح، اللسانيات وتحليل النصوص، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط 2 الأردن، (1430هـ- 2009م).

15. جمعة العربي الفرجاني، أسس النظرية البنيوية في اللغة العربية، المجلة الجامعة، العدد الثامن عشر، المجلد الأول، يناير 2016م.

16. حليمة أحمد محمد عمايرة، الاتجاهات النحوية لدى القدماء، دار وائل للنشر والتوزيع ط1، الأردن، عمان، 2006.

17. حمادي مصطفى، تداولية الإشاريات في الخطاب القرآني-مقاربة تحليلية لكشف المقاصد والأبعاد- مجلة الأثر العدد 26 سبتمبر 2016م.

18. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين بيروت، ط15، مايو2002م.

19. دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، دار نشر افريقيا شرق، ط3، دار البيضاء.

20. رفعت كاظم السوداني، المنهج التوليدي التحويلي، ط1، دار دجلة، عمان، 2009م.

21. طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، (د ت)، الإسكندرية.

22. طيب الدبة، مبادى اللسانيات البنيوية، دار القضية للنشر، د. ط، الجزائر، 2001م.

23. عامر بن عبد الله الثبيتي، المآخذ على فصاحة الشعر الجامعة الاسلامية، ط1.

24. عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، ط1، 1413هـ-1913م، دار الجيل بيروت.

25. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، الناشر دار المدني، د- ط، جدة.

26. العلوي اليمني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخذيوية، (د. ط)، مصر 1222هـ.

27. عمر بن عبد المجيد البيانوني، قواعد التقديم والتأخير عند المفسرين.

28. الفارابي، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرف، د ط، بيروت لبنان 1986م.

29. كمال الدين أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الفكر، (د. ط)، (د. ب)، (د. ت)

30. ماري بان آفلو- جورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت، 2012م.

31. محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، 1999م.

32. محمد العمري، القلب المكاني، مجلة جامعة أم القرى، السنة السادسة، العدد الثامن (1414هـ – 1993م)

33. محمَّد الثامن (حسن شُراب، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، ج3، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط7، 1142هـ، 2007م.

34. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، د.ت 2002م.

35. مختار عطية، الإيجاز في كلام العرب، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، (د. ت)، جامعة منصورة، مصر.

36. مختار لزعر- وحنيفي بن ناصر اللسانيات النظرية وتعميقاتها المنهجية، د ط، الجزائر مارس 2009، ديوان المطبوعات الجامعية للنشر والتوزيع المدينة المنورة، (1428هـ- 2007م).

37. مسعود صحراوي، التداوليّة عند العلماء العرب دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.

38. نعمان بوقرة، اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، ط 1، الأردن 2009م.

39. نعيمة السعدية، سوسير ولسانيات الكلام هل كان يدرك ...؟، ندوة المخبر (اللسانيات مائة عام من الممارسة)، قسم الآداب واللغة العربية، محمد خيضر –بسكرة.

40. نور الهدى حسني، الدرس اللغوي عند ابن سنان الخفاجي، أطروحة دكتوراه في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، (2015-2016م).

41. هناء سعداني، لسانيات فريديناند دي سوسير، محاضرة 1، مقياس المدارس اللسانية السنة الثانية، دراسات أدبية.

42. يوسف وغليسي، الدراسات اللغوية، مجلة علمية لغوية متخصصة ومحكمة تصدر عن مختبر، مختبر الدراسة اللغوية، جامعة منتوري-قسنطينة، العدد 06، 1431هـ-2010م.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

https://almichware.ahlamontada.net/t406-topic

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنـــوان	رقم الصفحة
إهداء	
شكر وعرفان	
ملخص	
مقدمة	أ
تمهيد	6
المبحث الأول: الاتجاه البنيوي في كتاب سرّ الفصاحة	11
المطلب الأول: اللغة والكلام	12
المطلب الثاني: الأصوات والحروف	17
المطلب الثالث: الدال والمدلول	20
المطلب الرابع: الاستبدالية والتركيبية	23
خلاصة	30
المبحث الثاني: الاتجاه التوليدي التحويلي في كتاب سرّ الفصاحة	32
المطلب الأول: الاستعارة (البنية السطحية والعميقة)	35
المطلب الثاني: القواعد التوليدية التحويلية	37
خلاصة	49
المبحث الثالث: الاتجاه التداولي في كتاب سرّ الفصاحة	52
المطلب الأول: الإشاريات في كتاب سرّ الفصاحة	52
المطلب الثاني: الأفعال الكلامية في كتاب سرّ الفصاحة	58
المطلب الثالث: الاستلزام الحواري في كتاب سرّ الفصاحة	62
المطلب الرابع: الحجاج	64
خلاصة	69
خاتمة	72

ملحق	75
قائمة المصادر والمراجع	78
فهرس الموضوعات	83